دروس تزكية النفوس

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

الباب الأول

تزكية النفوس

الفصل الأول

معرفة النفس

إذا عرفت نفسك كان بالحق أنسك، ومن جهل نفسه أنس بما تأنس به الأنعام، واستوحش من الملك العلام، فابتهج بالدني والوبي، وحجب عن النور المضي، ولا عجب؛ فإن الخفاش لا يرى ضوء الشمس مع سطوع أنوارها، وتلألؤ أضوائها، ومن استضاء بنور الشمس سلك طريق الشهوات، ومن استضاء بنور الحق صغرت عنده أرقى المقامات.

الفصل الثاني

النفس النورانية والنفس الشريرة

النفوس قسمان: نفس نورانية، خلقت من الجمال، ونفس شريرة لا تؤثر فيها الذكرى والموعظة ولو كانت في ابن نبي أو رسول أو صديق، والمثال: ابن سيدنا نوح . ولو تربت النفس الشريرة مع الملائكة لم تؤثر فيها التربية، فلا بد أن تعود إلى شرها، ومثال ذلك تربية موسى السامري مع سيدنا جبريل. والنفس النورانية لا يؤثر فيها الشر، ولو تربت مع إبليس، ومثال ذلك تربية سيدنا موسى مع فرعون.

الفصل الثالث

تفاوت النفوس

بين جواهر النفوس تفاوت، يقف العقل دون فهم نسبه، فمن النفوس ما جوهرها من أدنى جواهر النفوس الإبليسية الشريرة، ونفوس أهل الإلحاد والجحود، والشرك بالله تعالى، وهؤلاء لا تزيدهم الحجة إلا بعداً، ولا البرهان إلا جحدًا، ولا الآيات إلا إنكاراً. قال الله تعالى: ﮋ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﮊ (البقرة: 145). وقال تعالى: ﮋ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﮊ (الأعراف: 132). وأهل هذه النفوس لا تخفى علامتهم ولو كانوا مسلمين ظاهراً وإنما هي نفوس خفيت على عيون الرءوس ما احتوت عليه، قال تعالى: ﮋ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﮊ (البقرة: 14).

أما النفوس التى صاغها الله من الجواهر الصافية فإن منها ما هو مجذوب إلى حضرة القدس ولو بغير آية، ولا دليل، أو برهان، كنفوس الفتية أهل الكهف، أو بدليل، كنفوس سحرة فرعون مع موسى – – أو بالوجد الصادق كنفوس أفراد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أو أفراد التابعين كأويس القرنى وابن المسيب وابن جبير وغيرهم كحبيب العجمى والبلخى ورابعة العدوية ممن صال عليه الحق صولة ملأت قلوبهم حباً، وبصائرهم مشاهدة لجماله العلى.

جَوْهَرُ ٱلنَّفْسِ نَاوَلُوهُ ٱلطَّهُورَا ... أَشْهَدُوهُ فِي ٱلذِّكْرِ بِٱلصَّفْوِ نُورَا

وَاجَهَتْهُ شَمْسُ ٱلْحَقِيقَةِ حَتَّىٰ ... بِٱلتَّدَانِي قَدْ شَاهَدَ ٱلْمَذْكُورَا

غَابَ عَنْهُ فِي ذِكْرِهِ فَتَدَلَّىٰ ... وَاجَهَ ٱلْوَجْهَ شَاهَدَ ٱلْمَقْدُورَا

لَمْ يَقِفْ لَحْظَةً وَنُورُ ٱلْمَجَالِي ... مَشْهَدُ ٱلْفَرْدِ ظَاهِرًا لاَ سُتُورَا

كَيْفَ حَجْبِي بِسِرِّ قَدَرٍ وَوَجْهِي ... قَدْ رَآهُ مُقَدِّرًا وَقَدِيرَا؟!

دُونَ مَرْأَى ٱلْجَمِيلِ آيٌ وَكَوْنٌ ... بَلْ﴿وَكُنْ﴾ دُونَهُ فَزِدْنِي حُبُورَا

لِي مَقَامٌ حَالَ ٱقْتِرَابِي وَصَفْوِي ... يُجْتَلَى ٱلْوَصْفُ ظَاهِرًا مَنْظُورَا

بِٱجْتِلاَهُ أَفْنَىٰ بِهِ عَنْ شُهُودِي ... أَبْقَىٰ فِيهِ أَرَاهُ رَبًّا غَفُورَا

عُدْتُ لِلْبَدْءِ،كَلِمَةٌ فِي ٱبْتِدَائِي ... أَظْهَرَتْنِي رَمْزًا يُشِيرُ ظُهُورَا

مَظْهَرٌ لِلْجَمَالِ كَنْزٌ عَلِيٌّ ... صُورَةُ ٱلأَصْلِ مَنْ أَتَانَا بَشِيرَا

بَيْنَ صَفْوِي وَبَيْنَ قُرْبِي وَأُنْسِي ... مِثْلُ سُورٍ يُحِيطُ ثَمَّ بُحُورَا

سُورِيَ ٱلشَّرْعُ وَٱلْبُحُورُ ٱلتَّجَلِّي ... مَنْ رَآهُ بِٱلسِّرِّ يَشْهَدُ نُورَا

سَيْرُهُ مَنْهَجُ ٱلْحَبِيبِ ٱلتِّهَامِي ... سِرُّهُ ظَاهِرٌ يُرَىٰ مَغْمُورَا

صَلِّ رَبِّي عَلَى ٱلْحَبِيبِ ٱلْمُرَجَّىٰ ... نُعْطَ مِنْهَا ٱلصَّفَا وَنُعْطَ ٱلسُّرُورَا

الفصل الرابع

لِمَ سخر الله الملك والملكوت للإنسان؟!

إن النفس الإنسانية حيرت العالم أجمع قال العربي:

وَٱلَّـــذِي حَـــارَتْ ٱلْبَرِيَّـــةُ فِيـــهِ   حَيَـــوانٌ مُسْـــتَحْدَثٌ مِـــنْ جَمَـــادِ

ولولا ذلك، ما سخر الله للإنسان ملكه وملكوته، ولا أكرمه بأن جعله في أحسن تقويم، ولا تفضل عليه بسجود ملائكته، ولا أحسن إليه بأن وعده بالملك الكبير، ولا اعتنى به فأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين، ولا رفعه فوق العالم أجمع، بأن جعل من بنى الإنسان من يكلمه كفاحاً، وجعل منهم من يرتقى حتى يزج به في نور الملكوت، فيرى ربه مواجهة. كل تلك العواطف فضلاً عن أنه خلقه بيديه، فجمع فيه العالمين، وهو الجرم الصغير، والهيكل الضئيل فهو وإن صغرت حقيقة مبناه، فقد عظمت مكانة معناه، وهو فوق عالين قدراً ودون الشياطين سفلاً قال الله تعالى: ﮋ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﮊ (الشمس: 7-10). وقال سبحانه وتعالى: ﮋ ﯿ □ □ □ ﮊ (الأعلى: 14). والإفلاح في اللغة :الفوز بنيل القصود كلها ومن القصود تفريد الله تعالى بالقصد دون غيره، حتى يفر من الفردوس إلى مقصده جل جلاله وقد سبق لى أنى قررت أن أساس طريقي الحب والإيثار والاستقامة، وبينت لك أن البيت إذا بنى على غير أساس لا يقوى على زعازع الرياح ومعلوم أن طريق الله احتوشته الشياطين، فلا يسلك سلوك الواصلين إلى الله إلا من زكت نفسه قال على : (الهوى أخو العمى يعنى أن الأعمى لا يمكنه أن يهتدي إلى السبيل الموصلة إلى المقصد وكذلك إذا حجب الهوى القلب عن الحق، أعماه عن مناهج القرب، وموارد الحب، ولا يمكن للسالك أن يحصل تلك الأسس الثلاث إلا إذا زكت نفسه، والعقل وإن كمل لا تستبين له معالم طريق الله إلا بالمرشد ولو أن العقول يمكنها أن تصل إلى

الله بالبحث لكانت بعثة الرسل عبثاً، وتعالي الله عن ذلك علوا كبيرا.

الفصل الخامس

الإيمان كتبه الله وزينه في القلوب

وهو الذي خلق الإنسان من أركان الوجود الأربعة، التى هي الماء والتراب والنار والهواء. وأنت تعلم ما بينها من التضاد والعناد، فإذا وكل الإنسان إلى نفسه كان شراً من الشيطان، وأضر من السبع الكاسر، ما لم يزك نفسه. والحقيقة الإنسانية – من حيث هي – تستحق الدرك السفل من النار، إن لم يمنحها الله تعالى مزيداً عليها من فضله، يجذبها إلى مناهج القرب منه، قال الله تعالى، ﮋ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﮊ (المجادلة: 22). وقال تعالى في آية أخرى: ﮋ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮊ (الحجــــرات: 7-8).

فكتابة الإيمان في القلوب غير القلوب، وقلب لم يكتب الله فيه الإيمان جاحد لاحد، وحب القلب الإيمان غير القلب، وقلب لم يقدر الله له حب الإيمان فهو كافر نافر، وتزيين الإيمان في القلب غير القلب، وقلب لم يزين الله تعالى فيه الإيمان فهو كافر نافر، والكتابة والتزيين والتحبيب فعل الله تعالى، وهى حقيقة زائدة على الحقيقة الإنسانية ولولاها لكان الإنسان في أسفل سافلين؛ للنأي والبعد عن الله، قال تعالى: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﮊ (التين: 4-6). وتقدم لك أن الإيمان إنما كتبه الله وزينه في القلوب، وحببه في القلوب، ولولا كتابة الله وتزيينه وتحبيبه، لما كان على وجه الأرض مؤمن، وقوله تعالى: ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮊﮋ ﮊ (الحجرات: 7). فكأن الله –تعالى– كره الكفر والفسوق والعصيان إلى المؤمنين، وقبل إيمانهم كانوا يحبون الكفر والفسوق والعصيان؛ لأن قوله تعالى: (كَرَّهَ) دليل على أن تلك المعاني كانت محبوبة لهم، لولا عناية الله –تعالى– بهم، وولايته ﷻ لهم وكذلك من لم يزك الله –تعالى– نفسه فلا زكت؛ لأن أكمل نعمة علينا، هو نعمته –سبحانه– علينا بحبيبه ومصطفاه

ﷺ والسعيد حقًا من شكر نعمة الله عليه برسول الله ﷺ ومن لم يشكر نعمة الله عليه به نطالبه أن يتذكر نفسه قبل بعثته ﷺ فيرى أنه كان عابداً الحجر يصنعه بنفسه، وكان أرذل من أسفل الحيوانات، وأضل من أفسد الشياطين: قال الله تعالى: ژ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ژ ژ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ژ (آل عمران: 103).

فِيَّ نَفْسٌ تَدْعُو وَتَوْبِي أَمَانُ ... فِيَّ رُوحٌ قِوَامُهَا ٱلإِيمَانُ

فِيَّ حِسٌّ شِبَاكُ كُلِّ ٱلْخَطَايَا ... فِيَّ جِسْمٌ لِلْمُوبِقَاتِ رِهَانُ

فِيَّ عَقْلٌ يَقْوَىٰ عَلَى ٱلْحِسِّ لَـٰكِنْ ... خُبْثُ طَبْعِي فِيهِ ٱلْهَوَىٰ وَٱلْهَوَانُ

يَكْتُبُ ٱللَّهُ فِي ٱلْقُلُوبِ هُدَاهَا ... أَيَّدَتْهُ ٱلآيَاتُ وَٱلْبُرْهَانُ

زَيَّنَتْهُ آيٌ مِنَ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ ... يُكْتَبُ ٱلصِّدْقُ فِيهِ وَهْوَ ٱلْحَنَانُ

إِنْ يَتُبْ رَبُّنَا عَلَيَّ فَإِنِّي ... أَتَهَنَّىٰ,يُعْطِي ٱلرِّضَا ٱلدَّيَّانُ

إِنْ يَتُبْ خَالِقِي أَتُوبُ فَأَحْظَىٰ ... بِٱلأَمَانِي يَنَالُنِي ٱلرِّضْوَانُ

مَنْ أَنَا لَوْ أَتُوبُ فِي كُلِّ وَقْتٍ؟! ... تُبْ إِلَـٰهِي عَلَيَّ يَامَنَّانُ

كُلَّ آنٍ أَعْصِي وَأَنْسَىٰ فَوَيْحِي ... إِنْ دَعَانِي إِلَى ٱلْهَوَى ٱلشَّيْطَانُ

يَاإِلَـٰهِي عَبْدٌ ظَلُومٌ يُنَادِي ... قَابِلَ ٱلتَّوْبِ تَوْبَتِي لِي أَمَانُ

يَاسُرُورِي بِٱلتَّوْبِ عَنِّي قَبُولِي ... تَوْبُ رَبِّي عَلَيَّ لِي غُفْرَانُ

طَهِّرَنِّي مِنَ ٱلذُّنُوبِ وَبَدِّلْ ... كُلَّ سَوْئِي يَعُمُّنِي ٱلإِحْسَانُ

يَسِّرَنْ لِي ٱلْمَتَابَ حَصِّنْ جَمِيعِي ... أَيِّدَنِّي يَصِحُّ لِي ٱلإِيقَانُ

جَمِّلَنِّي يَاسَيِّدِي بِٱلْمَعَانِي ... أَظْهِرَنْ لِي ٱلأَسْرَارَ يَاحَنَّانُ

حَالَ حِلِّي وَفِي ٱرْتِحَالِي أَنِلْنِي ... كُلَّ خَيْرٍ يَصِحُّ لِي ٱلتِّبْيَانُ

هَبْ لِكُلِّ ٱلأَوْلاَدِ وَاسِعَ خَيْرٍ ... وَٱلأَيَادِي يَنَالُهَا ٱلإِخْوَانُ

الفصل السادس

أبدال سيدنا رسول الله هم ورثته

ونعمة الله علينا التى يأمرنا أن نذكرها هي رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولما كان الله حياً قيوماً، وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ خاتم الرسل، تفضل الله –تعالى– علينا، فلم يفقدنا رسول الله بل أوجده فينا إلى يوم القيامة، ونعوذ بالله من زمان يفقد فيه رسول الله ﴿ﷺ﴾، فهو –وإن رفعه الله إلى الرفيق الأعلى– فقد أقام له أبدالاً، هم ورثته، يجددون ما اندرس من سنته، ويعيدون ما خفي من أسراره، وقد وصفهم الله تعالى في آخر الفتح، وجعلهم –وإن كانوا في آخر الزمان– مع رسول الله، وهم في آخر الزمان، وذكرهم على بن أبي طالب -- في خطبته لكميل:

(قال كميل بن زياد: أخذ بيدى أمير المؤمنين على بن طالب فأخرجني إلى الجبان[1]، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال):يا كميل إن هذه القلوب أوعية[2] فخيرها أوعاها. فاحفظ عني ما أقول لك.

الناس ثلاثة: فعالم رباني[3]، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

يا كميل. العلم خير من المال، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال، المال تنقصه

---

(1) (الجبان –كالجبانة–: كالمقبرة)، وأصحر يعني مشى في الصحراء

(2) أوعية :جمع وعاء، وأوعاها أحفظها

(3) العالم الرباني هو المتأله العارف بالله. والمتعلم على طريق النجاة إذا أتم علمه نجى. والهمج – محركة–: الحمقى من الناس. والرعاع –كسحاب–:الأحداث الطغان الذين لا منزلة لهم في الناس. والناعق مجاز عن الداعي إلى باطل أو حق.

النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله[1].

ياكميل. العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته. والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل. هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة. ها، إن ها هنا لعلماً جماً(وأشار إلى صدره) لو أصبت له حملة[2]، بلى أصبت لقنا[3] غير مأمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحملة الحق[4] لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة. ألا لاذا ولا ذاك[5]، أو منهوماً باللذة[6] سلس القياد للشهوة، أو مغرماً بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين في شيء. أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلى، لا تخلو الأرض ما قائم لله بحجة. إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً

(1) من كان صنيع لك متحببا إليك لمالك زال ما تراه منه بزوال مالك، أما صنيع العلم فيبقى ما بقي العلم، فإنما العالم في قومه كالنبي في أمته، فالعلم أشبه شيء بالدين- بكسر الدال- يوجب على المتدينين طاعة صاحبه في حياته والثناء عليه بعد موته.

(2) الحملة –بالتحريك-: جمع حامل. وأصبت بمعنى وجدت أي لو وجدت له حاملين لأبرزته وبثثته.

(3) اللقن-بفتح فكسر-: من يفهم بسرعة، إلا أن العلم لا يطبع أخلاقه على الفضائل، فهو يستعمل وسائل الدين لجلب الدنيا، ويستعين بنعم الله على إيذاء عباده.

(4) المنقاد لحاملي الحق هو المقلد في القول والعمل ولا بصيرة له في دقائق الحق وخفاياه، فذاك يسرع الشك إلى قلبه لأقل شبهة.

(5) لا يصلح لحمل العلم واحد منهما.

(6) المنهوم: المفرط في شهوة الطعام. وسلس القياد: سهله. والمغرم بالجمع: المولع بكسب المال واكتنازه، وهذان ليسا ممن يرعى الدين في شيء. والأنعام: أي البهائم السائمة أقرب شبها بهذين، فهما أحط درجة من راعية البهائم لأنها لم تسقط عن منزلة أعدتها لها الفطرة، أما هما فقد سقطا واختارا الأدنى على الأعلى.

مغموراً[1]، لئلا تبطل حجج الله وبيناته. وكم ذا[2]؟ وأين أولئك؟ أولئك والله الأقلون عـدداً والأعظمـون قـدراً، يحفـظ الله بهـم حججـه وبيناتـه، حـتى يودعوهـا نظـراءهم، ويزرعوهـا في قلـوب أشـباههم، هجـم بهـم العلـم علـى حقيقـة البصـيرة، وباشـروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون[3]، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الـدنيا بأبـدان أرواحهـا معلقـة بالمحـل الأعلـى. أولئـك خلفـاء الله في أرضـه والـدعاة إلى دينه. آه آه شوقاً إلى رؤيتهم. انصرف إذا شئت).

وهم أئمة الهدى، الدالون على الحق بالحق، الذين يعيدون الأمر إلى ماضيه، وبهم تزكـو النفـوس. كمـا قـال الله تعـالى: ﮋ ۇ ۆ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ﮊ (البقرة: 151).

فتلك الأنواع التى أظهرها الله برسوله ابتداء يظهرها بورثته﴿ﷺ﴾ ختماً واتباعاً، فمـن أراد أن يفـوز بالسعادتين فليبـدأ بالبحـث عـن المرشـد، فـإن صـحبة المرشـد نفسـاً خير من عبادة ألف عام وإليك حكاية:

قال أبو تراب: كنت مع سيدى ومرشدى أبى يزيد البسطامى في سياحة، فجلسنا على دجلة، وتوجهت إلى البلد لأحضر له قوتاً، فلقيت رجلاً في الصحراء، توسمت فيـه الخـير، فسـلمت، وجلسـت، وتكلمـت معـه في سـيدى أبى يزيـد، فقـال: إن ربى يتجلى لى كذا مرة، فقلت لـه: وجه أبى يزيد خير مـن أن يتجلى لـه ربـك ألـف مـرة. فعجـب الرجـل، فقلـت: لـيس البيـان كالعيـان، وهـا هـو الرجـل، فتـدارك السـعادة قبـل فواتها، فأقبلت به وقد أتم سيدى الوضوء من دجلة، وخرج وعلى كتفه فروته مقلوبة،

(1) غمره الظلم حتى غطاه فهو لا يظهر.

(2) استفهام عن عدد القائمين لله بحجته، واستقلال له. وقوله لأين أولئك: استفهام عن أمكنتهم وتنبيه على خفائها.

(3) عدوا ما استخشنه المنعمون. لينا وهو الزهد

فقلت: ها هو أبو يزيد. فقال: ما آداب زيارته؟ قلت: أنظر إلى رجل مع الله تعالى، وانظر إلى نفسك وربك يتجلى لك تسعة وتسعين مرة، فأقبل على أبي يزيد، ووضع يده في يده ونظر إليه، وخر ميتاً، فدهشت، وقلت: ما هذا يا سيدى؟ قال: نظر الرجل إليَّ بقدره لا بقدرى فشهد من هو معى، ومن أنا عنده، فضاق الماعون، فكانت نظرة من زكت نفسه إلى المرشد نظرة أخفت المرآة، وأظهرت الصورة، والشقى من خفيت عنه الصورة، وظهرت المرآة، ومن تفضل الله عليه بعارف ربانى، وعالم روحانى، وأقام معه على حفظ العهد بالسمع والطاعة، زكت نفسه فحصل أنسه، وزال لبسه. وبالله التوفيق.

يُجْلَىٰ لِسِرِّي ٱلْبَهَا إِنْ صَحَّ لِي حَالِي ... وَٱلْوَجْهُ فِي ٱلذِّكْرِ حَالَ ٱلصَّفْوِ آمَالِي
يُخْفِي ٱلْبَهَا سِدْرَتِي وَٱلنُّورُ حَيْطَتُهَا ... لَوْلاَ ٱلْوِرَاثَةُ أَخْفَى ٱلنُّورُ إِجْمَالِي
حَالِي عَلِيٌّ وَلَـٰكِنِّي أُسَتِّرُهُ ... وَٱلْحَالُ لَوْ يَبْدُ يَمْحُو سُورَ أَبْدَالِي
أَنْوَارُهُ تَخْطَفُ ٱلأَبْصَارَ لَوْ سَطَعَتْ ... أَسْرَارُهُ دُكَّ مِنْهَا شَامِخٌ عَالِ
لِي وُسْعَةٌ وَسِعَتْ أَحْوَالَ مَنْ سَبَقُوا ... نُورُ ٱلْوِرَاثَةِ مِنْ مُعْطٍ وَمُتَعَالِ
لِي مَشْهَدٌ دُونَهُ ٱلأَحْوَالُ لَوْ كُشِفَتْ ... أَنْوَارُهُ تَمْحُ عَنِّي ٱلنَّأْيَ بِٱلْحَالِ
لاَ يَقْهَرُ ٱلْحَالُ مَنْ قَدْ ذَاقَ خَمْرَتَنَا ... صِرْفًا بِصِدْقٍ وَإِخْلاَصٍ وَإِقْبَالِ
خَمْرٌ طَهُورٌ بِسُورِ ٱلشَّرْعِ نَشْرَبُهُ ... مِنْ غَيْرِ خَلْطٍ وَلاَ مَزْجٍ وَإِضْلاَلِ
قَدْ نَاوَلَتْهَا يَدُ ٱلْوَهَّابِ مِنْ أَزَلٍ ... فَٱقْرَأْ ﴿أَلَسْتُ﴾ تَرَىٰ أَنْوَارَ أَقْوَالِي
نُورُ ٱلشَّرِيعَةِ فِي سِرِّ ٱلْحَقِيقَةِ فِي ... غَيْبِ ٱلْبُطُونِ وَفَيْضُ ٱلْفَضْلِ مُتَوَالِ
صِرْفًا تُدَارُ عَلَىٰ أَرْوَاحِ مَنْ طَلَبُوا ... غَابُوا بِهَا عَنْ سِوَى ٱلْوَهَّابِ وَٱلْوَالِي
أَرْوَاحُهُمْ شَهِدَتْ نُورَ ٱلْجَلاَلَةِ فِي ... غَيْبِ ٱلْعِنَايَةِ مِنْ أَهْلِي وَأَمْثَالِي
مَطْلُوبُهُمْ وَجْهُ مَوْلاَهُمْ وَبُغْيَتُهُمْ ... فَضْلٌ يَدُومُ وَرِضْوَانٌ بِإِقْبَالِ
أَهْلُ ٱلْعَزَائِمِ قَدْ خُصُّوا بِسَابِقَةٍ ... حُبٍّ إِلَى ٱللَّهِ يَجْذِبُهُمْ بِإِجْلاَلِ

ٱللَّهُ خَصَّهُمُو بِٱلْحُبِّ مِنْ أَزَلٍ   وَٱلْمُصْطَفَىٰ قَدْ سَقَاهُمْ خَمْرَهُ ٱلْغَالِي

أَرْوَاحُهُمْ شَهِدَتْ أَنْوَارَ مُبْدِعِهِمْ   فَرُّوا إِلَى ٱللَّهِ فِي حِلٍّ وَتَرْحَالِ

قَدْ نُوِّلُوا خَمْرَةَ ٱلْقُرْآنِ صَافِيَةً   فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ مُتَوَالِ

صَلُّوا عَلَىٰ مَنْ سَقَانَا ٱلرَّاحَ صَافِيَةً   خَيْرِ ٱلنَّبِيِّينَ غَوْثِي كُلِّ آمَالِي

الباب الثاني

التهذيب

الفصل الأول

حقيقة التهذيب

قال الله تعالى: ﮋ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﮊ (الشمس: 7-10). وقال سبحانه تعالى: ﮋ ﯾ □ □ □ ﮊ(الأعلى: 14). وقال تعالى: ﮋ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﮊ (البقرة: 222). وقال﴿ﷺ﴾ في الحديث الطويل: (ألا وإن في الجسد لمضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله. ألا وهى القلب.. ألا وهى القلب) [رواه البخارى في كتاب فضائل الصحابة الباب 27]. وقال : (ألا أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون) [رواه البخارى في كتاب الإيمان الباب 39، ومسلم في كتاب المساقاة الباب 107]. وقال : (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) [رواه البيهقى في الزهد وله شاهد من حديث أنس].

التهذيب مجاهدة النفس حتى تتخلى عن الرذائل التى فطرت عليها، والحظوظ الخفية عنها، والأهواء الباعثة لها على تعدى حدود الله تعالى، وقد شرحت في كتاب (معارج المقربين) [1]، وكتاب (النور المبين) [2] جملاً في علم النفس، وألمعت في كتاب (تذكرة المرشدين) [3] إلى طرق للتهذيب والتخلية، فليراجعها طالب القرب من الله

---

(1) يطلب جميع تراث الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبو العزائم من دار الكتاب الصوفي إحدى أوجه نشاط الطريقة العزمية 114ش مجلس الشعب.القاهرة.

(2) يطلب جميع تراث الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبو العزائم من دار الكتاب الصوفي إحدى أوجه نشاط الطريقة العزمية 114ش مجلس الشعب.القاهرة.

(3) يطلب جميع تراث الإمام المجدد السيد مُحَمَّد ماضي أبو العزائم من دار الكتاب الصوفي إحدى أوجه نشاط

تعالى؛ حتى ينال بغيته التى يبغيها، ونهاية بغيه المؤمنين ما أخبر الله به عنهم بقوله تعالى: ﴿ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﴾ (الفتح:29). فبغية كل مؤمن كامل، أن يفوز بفضل الله العظيم، ورضوانه الأكبر، وهى حلل الجمال التى يتفضل الله بها على العبد المؤمن، بخالص المنة، بعد التخلي من ميول النفس ورعوناتها، وحظها وهواها، وبعد توقى شحها، وتطهيرها من لقسها.

الطريقة العزمية 114ش مجلس الشعب.القاهرة.

الفصل الثاني

حكمة التهذيب على يد المرشد

ومن قام بتهذيب النفوس ولم يكن مرشداً كاملاً، أو قام يهذب نفسه بنفسه على غير يد المرشد، أضعف الحالة الوسط في التوازن بين القوى الإنسانية، فأخذ بالآلات التى توصل للنفس المعلومات من الأعضاء الظاهرة، والقوى الباطنة، ومتى ضعفت تلك القوى والأعضاء، لم توصل إلى النفس المعلومات اليقينية. مثال ذلك: أنك تلقى دلواً في الماء ممزقاً، فإذا سقط في الماء امتلأ وثقل، فإذا انتشلته لم يوصل إليك ماء، ولكنه يصل إليك فارغاً، فكذلك إذا كانت القوى الإنسانية تضعف بالتهذيب على يد غير المرشد، لا تضبط المعاني الحقة، ولكنها تضبط المعاني الباطلة، فتوصلها إلى جوهر النفس، وجوهر النفس قابل بفطرته، فإذا رد على الجوارح ما قبل، ضعفت الجوارح عن رده عليها فحصل اللبس، وأكثر السالكين في طريق الله، يختل التوازن بين قواهم، فيخرجون عن النمط الأوسط، ويقول الله تعالى: ﮋ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﮊ (البقرة: 143). ويقول﴿ﷺ﴾ : (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى) [رواه أحمد في الجزء الثالث صفحة 19]. وأكثر عمار البانيرستان (مستشفى المجاذيب) من الذين تهذبوا على يد غير المرشد، من الجهلاء أو الضلال، وكثير من أهل الضلال يستعملون المخدرات في مجالسهم، ليفسدوا على الناس القوى التى بها إدراك الحكمة العالية، لتكون لهم شهرة بين الناس بأن لهم نفوساً تؤثر، وكم خدعت نفوس طاهرة بأهل الجهالة من الأدعياء وأهل الضلالة، من الذين لم يؤمنوا بيوم الحساب، وتنزه طريق الحق عن تلك الأباطيل، لأن هذا لو كان حقاً، لكان أولى به رسول الله﴿ﷺ﴾ والصحابة والأئمة الهادون المرشدون بعده.

الفصل الثالث

الفرق بين أهل السلوك والتمكين في إظهار أحوالهم

وربما اعترض عليّ معترض فقال: إن أئمة الطريق، وهداة الأمة لهم من الأحوال ما تسجد له العقول، وتخشع له القلوب. فأجيبهم: إن أحوالهم لم تحصل لهم إلا في حال سلوكهم، قبل أن يكونوا من أهل التمكين الدالين على طريق الحق، وليسوا عند تلك الأحوال والكرامات بأئمة للمتقين، لفنائهم عنهم، وغيبتهم عن حسهم، حتى يكملوا، فإذا كملوا صغر في عينهم كل شيء، من حال، ومقام، وكرامات، لمواجهتهم لعظمة الحق ﷻ، قال ﴿ﷺ﴾: (من عزه الله صغر في عينه كل شيء) فكانوا ﭫ مأواهم القبور والصحارى والغابات، يفرون من الخلق، يأكلون أوراق الأشجار، ويشربون ماء العيون، فإذا اجتمع عليهم الخلق أظهروا الجنون، ووالله ماهم بمجانين، ولكنهم غاروا على الحكمة العالية، والأحوال السامية، أن يسمعها غير أهلها، فيقلدونهم تقليد القردة، ويدعون أنهم علماء حكماء، أعرف بطريق الله من غيرهم، وهم شياطين وضلال، أعاذنا الله منهم.

الفصل الرابع

التهذيب في طريق آل العزائم

فالتهذيب في طريقى هذا ينبغى أن يكون على يد المرشد، وينبغى أن يكون الأخ المسترشد على بينة من أمره في مقام التهذيب، حتى إذا أمره المرشد بأمر ليهذب به نفسه سارع إليه بحكمة، حتى يكون ملامتيًا صادقًا، إذا لام الناس عليه، وعنفوه، وضربوه، فرح بذلك؛ لأن مراد المرشد سقوطه من قلوب الخلق، وسقوط الخلق من قلبه، حتى يكون واحداً لواحد، فإذا أذن بالتهذيب، ولم يفقه معنى التهذيب، أو سمع المرشد يأذن فرداً من الأفراد بالتهذيب خاصاً به، فقلده، كان ذلك سبباً في ضلاله، وضلال كثيرين معه.

الفصل الخامس

الملامتي المخلص في طريق آل العزائم

فإن الملامتى المخلص في طريقي هذا، يكره من يميل إليه، ومن يحبه، خشية أن يقع في الضلال، لأن التهذيب خاص الخاص، وهو في ظاهر الأمر خروج عن الاعتدال، وهو في الحقيقة عين الاعتدال؛ لأنه الدواء الوحيد لهذا السالك، وقد يقطع العضو من الجسم لصلاح الجسم، وقد يكوى الجسم لرد العافية عليه.

الفصل السادس

الذاتى من الملامية في طريق آل العزائم

والذاتي من الملامية في طريقى هذا، لا يرد إلى الخلق إلا بعد كمال التهذيب، فإذا رجع إلى الخلق قبل تمام تهذيبه كان كالفاكهة النيئة، من تناول منها قطعة أمرضته، وكيف يميل الذاتي إلى الشمائل والشئون فضلاً عن الخلق؟! ليس هذا من طريقى. هذا، والذاتيون هم المؤهلون للذات الأحدية، الذين انكسرت قلوبهم لعظمة الحق، فجبرها الجبار، كما يجبر أحدنا الإناء المكسر، ومتى جبر أحدنا إناءه استعمله، ومتى جبر الحق قلباً استعمله، قال﴿ﷺ﴾: قال الله تعالى: (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى) [ذكره الغزالى في البداية].

آلُ ٱلْعَـزَائِمِ بَـدْؤُهُمْ تِبْيَـانِي مِـنْ عَهْـدِ   سَـارُوا عَلَـىٰ نَهْـجِ ٱلْهُـدَى ٱلْقُـرْآنِي لَبَّـوْهُ
يَوْمِ﴿أَلَسْتُ﴾صَـــافَاهُمْ لَـــهُ   بِٱلتَّحْقِيقِ وَٱلْفُرْقَانِ أَجْسَامُهُمْ فِي ٱلشَّرْعِ حِصْنُ
أَرْوَاحُهُـمْ فِي أُفْقِ أَعْلَىٰ شَاهَدَتْ أَصْغَوْا إِلَىٰ   أَمَـــانِ
مُحْبُـــوبِهِم بِقُلُـــوبِهِمْ   لَمْ يُلْفِتَـنْهُمْ ذُو هَـوًى شَيْطَانِي بَـدْءُ ٱلسُّلُوكِ
فَــوْقَ ٱلصِّـرَاطِ سَـعَوْا بِصِـدْقِ عَزِيـمَةٍ   مَشَـــاهِدُ ٱلإِحْسَـــانِ
لَمْ تُلْهِهِمْ دُنْيَا وَلاَ أَحْوَالُهُمْ فَرُّوا مِنَ ٱلْكَوْنَيْنِ   بَــلْ وَٱلْكَرَامَــةُ عَــنْ رِضَــا ٱلــرَّحْمٰنِ
شَوْقًا لِلْعَلِي ٱلْعِلْمُ حَصَّنَهُمْ مِنَ ٱلشِّرْكِ ٱلْخَفِي   فِي حِصْــنِ شَــرْعِ ٱلْمُصْــطَفَى ٱلْعَــدْنَانِ
نُــورُ ٱلشَّــرِيعَةِ مُشْــرِقٌ لِعُقُــولِهِمْ   وَٱلْحُبُّ جَمَّلَهُمْ بِخَيْرِ بَيَانِ وَٱلْوَجْهُ لِلأَرْوَاحِ عَيْنَ
آلُ ٱلْعَزَائِمِ جُمِّلُوا بِعَوَارِفٍ هُمْ أَنْجُمٌ لِلإِهْتِدَا قَدْ   عِيَـانِ فَـازُوا بِفِقْـهِ غَـوَامِضِ ٱلْقُـرْآنِ بِـٱلْعِلْمِ
بَيَّنُـــوا   وَٱلأَحْـــوَالِ وَٱلْعِرْفَـــانِ
أَهْلُ ٱلْمَلاَمَةِ وَٱلْحَبِيبُ ٱلْمُصْطَفَىٰ مِيرَاثُ خَيْرِ   أَوْلاَ هُمُـو ٱلْمِـيرَاثَ حَـالَ تَـدَانِ خَمْـرُ ٱلْفُتُـوَّةِ
ٱلرُّسْلِ شَرْعٌ ظَاهِرٌ لَمْ يَقْهَرَنْ آلَ ٱلْعَزَائِمِ مُبْطِلٌ   لِلْقَرِيبِ ٱلْفَانِي يَدْعُوهُمُو لِلصَّدِّ وَٱلْهُجْرَانِ هُمْ
سِــرُّ ٱلْعِنَايَــةِ مِــنْ ﴿أَلَسْــتُ﴾ يُعِيــنُهُمْ   صَـفْوَةُ ٱلْحَنَّـانِ وَٱلْمَنَّـانِ أَرْوَاحُهُـمْ لِلْقُـدْسِ فِي
فَــرُّوا جِهَـادًا لِلْـوَلِيِّ وَوَجَّهُـوا فَـوْقَ ٱلتُّـرَابِ   ٱلأَكْـوَانِ قَـدْ عُلِّقَـتْ فِي قُدْسِـهِ ٱلنُّـورَانِي فِي

تَرَاهُمُو وَقُلُوبُهُمْ مَا فَارَقُوا حِصْنَ ٱلشَّرِيعَةِ   عِصْمَةِ ٱلْوَهَّابِ وَٱلدَّيَّانِ
لَحْظَةً   آلِ ٱلْعَزَائِمِ فَٱفْهَمَنْ بُرْهَانِي شَيْطَانُ أَهْلِ
مَنْ فَارَقَ ٱلشَّرْعَ ٱلشَّرِيفَ فَلَيْسَ مِنْ   ٱلْكُفْرِ وَٱلطُّغْيَانِ؟!
أَبْدَالُ رُسْلِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُضِلُّهُمْ   أَنْوَارُهُمْ لاَحَتْ مِنَ ٱلتِّبْيَانِ
هُمْ أَنْجُمٌ فِي أُفْقِ أَعْلَىٰ أَشْرَقَتْ   عِلْمٌ شُهُودٌ نُورُهُمْ رَبَّانِي
ٱللَّهُ أَظْهَرَهُمْ نُجُومَ ٱلإِهْتِدَا

الفصل السابع

خدع أهل الضلال

لأهل النفوس الخبيثة تأثير على أهل التسليم من الصبيان، والنساء، والأتقياء من الرجال، ممن صفت جواهر نفوسهم وظنوا أنه لا يوجد من المسلمين مضل ولا خبيث، فيخدعون لأول عارض يعرض لهم من ضال جمل ظاهرة للخلق، ممن قال الله تعالى فيهم ژ ۋ ۅ ۉ ۉۋ ې ې ې ۑ ژ (المنافقون:4). وقال تعالى: ژ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃڃ ژ (الأنعام:112). فأعظم خدعهم ما يزخرفونه لأهل التسليم، مما يوهمونهم به، فيبتدئونهم بذكر ولى مشهور، ويثبتون له أشياء بزخرفة كلامهم، حتى يعتقد أهل التسليم أن فلانا من الأولياء يضر وينفع، ثم يستدرجونهم إلى أن يتمكنوا من قلوبهم، فيتصرفون في أموالهم، ويلعبون بعقائدهم، فتارة يمنعونهم عن الحق، تارة يأمرونهم بالباطل، والقلوب صاغية، والأبدان لينة، وكم أضل الضلال بأهل المقامات العلية من أفراد الوجود أمماً. هذا سيدنا عيسى – عليه الصلاة والسلام – الذي غضب عندما ناداه رجل: أيها المعلم الصالح، فقال: أنا لست المعلم الصالح، المعلم الصالح هو الله. كيف جعله إلها يعبد من دون الله "لأربعمائة مليون" من الناس (كان ذلك حين إملاء الإمام المجدد السيد مُحَّد ماض أبو العزائم لذلك السفر العظيم).، وانظر إلى اللعين إبليس –لعنة الله عليه– كيف زخرف القول لآدم، فأخرجه من الجنة، وكم ترى السالكين من المسلمين في أرقى مقامات التسليم، يعلمون أن عداوة الأخ المسلم ضلالة، يعادون بعضهم للتعصب لولى من الأولياء وكم بين أهل الطرق المختلفة من خصومات، لا تكون إلا بين المختلفين في الدين، قال الله تعالى: ژ ڇ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڌڌ ژ (الأنعام:159). وما تفرق أهل السلوك المسلمون على بعضهم إلا من زخرفة أهل الضلالة لهم، ومدح كل فريق الولي الذى يتبعه ليدوم إقبال جل الخلق عليهم، وهم دعاة إلى جهنم، نعوذ بالله منهم. وكم أبعدوا قلوب

المسلمين عن الله تعالى وعن رسوله ﴿ﷺ﴾ وعن الحق وعن الصريح البين، وأولياء الله براء منهم، كما تبرأ المسيح من أعدائه الذين جعلوه إلها.

ومن خدعهم أن يحفظوا مواجيد أهل الصدق، ممن وقع بهم العلم على عين اليقين، وهجمت عليهمه صولة بالحق، فأفنتهم عنهم بالحق، فيترنمون بألحان شجية، بتلك المواجيد أمام النفوس الطيبة الطاهرة، ومعلوم أن السماع -كما قررنا- من أكمل أنواع تزكية النفوس، فإذا أصغت الآذان إلى تلك المعاني القدسية، بالألحان الشجية، زكت النفس، وقبلت، وأحبت من تغني، ورسمه الخيال، فقلده تقليد الأعمى، واتسع القلب فقبل، فإذا دامت تلك النغمات على النفس، ربما أفسدت القوة المدركة، فحصل الخلل في التوازن، فيحصل للسامعين زيغ عن الحق، فيظنون أنها أحوال سامية، وأنوار علية، ويقرون الناس بهذا، وهم ضلال. أعاذنا الله منهم. ومن خدعهم أن يصنعوا نفيرا من الورق، يطوى على بعضه، ويطول عند اللزوم، فيختفون في خلوة، ويتكلمون فيه بأصوات مختلفة فيسمعه الجالسون من بعد، ويوهمونهم أن الجن يحضرون مجالسهم، وهي خدع تقبلها النفوس الطاهرة المفكرة، بعد أن تختل قوى التوازن بالمقدمات السابقة.

ومن خدعهم أنهم يوهمون الناس أن يرسلوا لهم هواتف، ويقوم دعاتهم الضالون فيوهمون المسلمين بتلك الأوهام، والعقيدة قوية على القلب، فتحصل محاكاة الأصوات في الآذان، فيظن السالك أن هذا كلامهم، وهم بعيدون عنه، ويتخيل لهم معان اقتضاها الحال.

ومن خدعهم أنهم يوهمون المسلمين، أن من علامات القبول أذية الناس، وإنكارهم عليهم بخروجهم عن جادة الطريق المستقيم، ويوهمونهم أن ذلك للأنبياء والأولياء، نعوذ بالله من خدعهم، فإن ذلك حصل للأنبياء حال دعوتهم إلى الحق، وقيامهم بما أمر

سبحانه، وحصل للأولياء حال تجديدهم لسنة رسول الله ومعاداة الأمراء المخالفين للسنة، أما اللوم على مخالف السنة فهو من أكمل السنن المحمدية. قال﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾ :﴿اذكر الفاسق بما فيه يحذره الناس﴾ [رواه ابن أبي الدنيا، وابن عدي، والطبراني، والخطيب عن معاوية بن حيدة، وأبو يعلي وغيره]. وقال تعالى : ﮋ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﮊ ﴿آل عمــران :104﴾.

وقال﴿ﷺ﴾ : ﴿لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله﴾ (رواه البخاري في كتاب الاعتصام الباب10، ومسلم في كتاب الإيمان الحديث 247).

ومن خدعهم أنهم يوهمون المسلمين أنهم أبدال الأولياء وأبوابهم والعارفون بمقاماتهم، والنفوس الطاهرة مشتاقة إلى القرب من الله، والوصول إلى حضرة رسول الله﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾، وإلى نيل السعادة بصحبة الوارث لرسول الله﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾ فيتبعون هؤلاء الضلال، طمعا في نيل هذه الخيرات، وهم يعتقدون أنهم على الحق حقا. ولما كان الله تعلى سبق في أزله العناية بأمة حبيبه ومصطفاه، لم يجعل للباطل سلطانا على أمة حبيبه ومصطفاه، فلا يلبث هذا الباطل إلا ريثما يظهر الحق، وتتضح للسالكين الحقيقة، فينيبون إلى الله تائبين. ومن قرأ تاريخ الخوارج، وما كانوا يزخرفونه من القول حتى حاربهم أمير المؤمنين سيدنا على بن أبي طالب -وأنت تعلم من علي بن أبي طالب -فجمعوا عليه جموعا، وحاربوه ورموه بالكفر والضلال، ولا يزال قرن الشيطان في كل زمان ومكان، لأن إبليس لعنه الله أخبر الله عنه فقالﮋ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮊ (الأعراف :16-17). أعاذني الله وإخواني المؤمنين من الشيطان الرجيم، ومن أعوانه من الإنس والجن.

ومن خدعهم أن يأمروا المسلمين بالرياضات النفسانية، لينالوا غرضا من أغراض الدنيا، فينقلون من الإيمان إلى الشرك، وتكن عباداتهم لغرض سافل، ومنهم من يأمر تلاميذه بترك العلم والتعليم، وترك الوظائف والرواتب، بل وترك الأعمال الشرعية، موهما أن ذلك يحجب عن الأنوار. ونعم، فإنه يحجب عن الأنوار الإبليسية، وقد رأيت رجلا في آخر صعيد مصر، ازدحم عليه الطلاب، لا شغل له إلا شرب التبغ، وسألت أحد أتباعه، لم لم تصل على النبي﴿ﷺ﴾؟ إن صليت عليه ذهب نوري، وانصرف إلى شيخه، فأعطاه عصا طويلة، وقال : امض بتك العصا واسلب حاله، فجاءني وأنا جالس مع بعض أهل العلم في أسوان، ووقف أمامي بالعصا، وتمتم بكلمات، فاسترسلت في مذاكرتي حتى انتهيت منها، ثم نظرت إليه ففهمت خبث نفسه، فقلت له: ژ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ژ ﴿الإسراء:81﴾، فصدرت الكلمة إلى نفس خبيثة ذات همة، فسقطت العصا من يده، وجلس على الأرض، ودنا مني فأسمعته بعض آي القرآن الكريم، وشرحت لهم معناها فتاب إلى الله، وأقبل عليه سبحانه، وأخبرني أن شيخ شيخه بمصر، وأنهم يتركون الأعمال الشرعية ليزيد حالهم، فتحققت قوله سبحانه وتعالى:﴿ ژ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ۓ ژ (مريم:75). وقال﴿ﷺ﴾ (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخضه لم يفلته) (رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن"تفسير سورة هود"، ومسلم في كتاب البر الحديث 62، وابن ماجة في كتاب الفتن الباب 22). وسألت الله –تعالى- أن يحفظ المسلمين جميعا من دعاه الجهالة، إنه مجيب الدعاء.

وكم لهم من خدع يستعملونها، لكل نفس بحسب ما تميل إليه، فمنهم من يدعي علم الكيمياء والآفاق، ومنهم من يدعي فتح الكنوز، وفك الرموز، ولما كان الصبيان والنساء وأهل التقوى من الرجال، أشوق إلى الحق، وأقرب إلى التسليم، كان تأثيرهم على هؤلاء أكثر، وكم يظنون أن هذا حال.

الفصل الثامن

حقيقة الحال

وحقيقة الحال قهر النفس على ما لا يلائمها، وعمل عظائم الأمور في طاعة الله مما لا يتحمله إلا أهل العزائم، كالخروج من الأسباب ثقة بالله، وكبذل ما في يده للطيور والكلاب والفقراء، واشتغاله بواجب الوقت مع تألمه من العمل، وخروجه من المعتاد له، كهجر النساء وترك ملاذ المأكل والمشرب والمنكح، وكابتذاله بين الناس بعمل المهن الدنيئة، ليصغر في عين الناس، وكالمبالغة في صلة الرحم، وبر الوالدين، وإكرام الضيف، وكالصبر على عظائم الأمور، والرضا عن الله في كل مقدور، ومراعاة الأدب الكامل في كل معاملاته القلبية والجسمية، والإحسان إلى المسيء فطرة، وصلة من قطعه عزيمة، والمسارعة إلى تأليف القلوب، وإزالة الشحناء منها والتجمل بمحاسن الأخلاق المحمدية، وحفظ الجوارح من الغفلة في كل أنفاسه، وسيره على الصراط المستقيم، الذي هو أدق من الشعرة، وأحد من السيف، واستواء الناس في نظره، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، وحبهم جميعاً لله، وبغض من يبغضه لله، فيحب الطائع ولو حرمه وخاصمه، ويبغض العاصي ولو أطاعه وأكرمه، ويخاف الله في خلقه، ولا يخاف الخلق في الله، ويحب الله في الخلق، ولا يحب الخلق لغير الله.

هذه أحوال أهل العزائم وليس منها ما يدعيه أهل الجهالة.

ٱلْحَالُ حُجَّةُ دَعْوَىٰ سَالِكٍ فَانِ ٱلْحَالُ وَٱلْحَالُ جَذْبَةُ مَحْبُوبٍ لِحَنَّانِ أَهْلُ
يُنْكِرُهُ أَهْلُ ٱلْجَهَالَةِ بَلْ لَكِنَّ أَهْلَ ٱلصَّفَا ٱلضَّلاَلَةِ مِنْ خِبٍّ وَشَيْطَانِ عَنْ كُلِّ
يُخْفُونَ حَالَهُمُو ٱلْعِلْمُ بِٱللَّهِ نُورٌ لاَ يَرَاهُ مُبْتَدِعٍ عَنْ جَاهِلٍ جَانِ فَرْدٍ مَشُوقٍ إِلَىٰ
سِوَىٰ رَوْحٍ وَرَيْحَانِ
خَلِّ ٱلإِشَارَةَ لاَ تُبْدِي غَوَامِضَهَا إِنْ إِلاَّ لِفَانٍ لَدَىٰ مَحْبُوبِهِ دَانِ فَٱلْعِلْمُ بِٱللَّهِ

أَنْكَــرَ ٱلْحَــالَ أَهَــلُ ٱلْجَهْــلِ فَٱعْــذُرْهُمْ مِـنْ أَسْـرَارِ إِيقَـانِ مَـالُوا إِلَى ٱلْحَـظِّ مِـنْ

ٱخْفُوا عُلُومَكُمُو صَوْنًا لَهَا عَمَّنْ تَسَتَّرُوا زُورٍ وَبُهْتَانِ إِلاَّ لأِ◌َهْلِ ٱلصَّفَا مِنْ خَيْرِ

عَنْهُمُو فَٱلْغَيْبُ لاَ يُجْلَىٰ وَٱدْعُوا إِلَى ٱللَّهِ إِخْوَانِ عَنْكُمْ بِجَذْبَةِ وَهَّابٍ وَحَنَّانِ أَنْ

بِٱلْحُسْـنَىٰ لِتَرْتَفِعُـوا سِـيرُوا عَلَـىٰ مَـنْهَجِ تَجْمَعُوا ٱلْخَلْقَ لِلْحُسْنَىٰ بِقُرْآنِ خَصْمٌ أَتَىٰ

ٱلْمُخْتَــــــــارِ وَٱجْتَهِــــــــــدُوا طَائِعًـا فِي حَالَـةِ ٱلْفَـانِي رِضْـوَانَهُ وَٱلْعَطَـا

ٱخْفُـوا عَـنِ ٱلْخَلْـقِ مَـا لاَ يَعْلَمُـونَ فَكَـمْ فَضْــــــــــــلاً بِإِحْسَــــــــــــانِ

وَٱللَّهَ أَسْــأَلُ أَنْ يَهْــدِي بِنَــا يُعْطِــي

الباب الثالث

مآخذ تزكية النفوس

الفصل الأول

الحس مصدر الأمراض النفسانية

اعلم أيها الأخ الكريم وأيدك بروحانية رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن الإنسان نفس وجسم وحس وأن بلاء الإنسان في كل الأمراض النفسانية في الإنسان من الحس، ومن ملك حسه وقهره بالقرآن والسنة يرى ربه –سبحانه– ويبلغ من الدرجات العلية أن يكون ربانياً روحانياً عالماً راسخاً في العلم، لأن الحس يقهر العقل والنفس والجسم، وهو باب الشيطان الذى يدخل منه على القلب؛ وذلك لأنه كان له غذاء يتغذى به في الجنة، وهو مسراته ببهاء جمال الحق، وبهجته بأنوار التجليات التى تبهر العقول بضيائها الملكوتي فلما أن تمكن الشيطان من آدم– – في الجنة كان سبباً في معصية آدم وأكله من الشجرة، فغضب الله على إبليس ولعنه؛ لأنه من جسم ناري لا يصلح لخير، ثم غضب على آدم، وتاب عليه؛ لأنه من طين، وحكم عليه أن يعيش بكد وعناء، وغضب على الحس فحرمه من غذائه الذى كان يتغذى به في الجنة، حتى يعود إليها إن اختاره الله تعالى، فهو في غاية الجشع إلي غذائه، يفتش عليه ولا يجده، فيوقع النفس فيما يغضب الله تعالى، وتلك القوة التى هي الحس منتشرة في جميع الجسد وجنودها السمع والبصر والشم والذوق واللمس والفرج والبطن، فهى تقهر العقل، ولا يقوى على مدافعتها إلا إذا أعانه الله –تعالى– ووفق من يشاء فيهب له النور الذى تستبين به سبل الله تعالى، وتظهر بشاعة الذنوب والمعاصي وقبحها ولديها فقد يقهر العقل الحس وقليل ما هم.

الفصل الثانى

الإنسان قد يفقد حسه وهو حى

لذلك أقول لك يا أخى.. إن الأمانى لا بد منها للإنسان ما دام الحس، وقد يفقد الإنسان الحس وهو حى، وليس الحس بلازم ما دامت الحياة، فإن بعض الناس قد يفقد سمعه وبصره، وقد يفقد ذكره ويديه بالأمراض، ويفقده بالنوم، وقد يفقده بما يحزن حزناً شديداً، أو يفرح فرحاً شديداً، وليس بمصيب من قال: إن الحس لا يفارق الحياة فإنه قد يفارقها كما قررت لك.

الفصل الثالث

مجاهدة الحس عند السالكين

وإذا تقرر ذلك، فيمكنك -أيها المسترشد- أن تجاهد نفسك أكبر الجهاد بالمراقبة والرعاية، حتى لا يؤثر عليك الحس تأثيراً يوقع في الخطيئة، ونسيان يوم الحساب، وجاهده لتلوح لك آيات الله جلية فيما تراه، وتسمعه، وتشمه، وتذوقه، وتلمسه، وتتخيله، وتتوهمه، فتكون آيات الله أقرب إليك من كل ملموس بأى قوة من القوى الحسية، وقد ترقى إلى مقام فوق ذلك، حتى تفقد الحس الذى به شهود الآيات، وبدوام جلاء جوهر نفسك بالتزكية، وبدوام عناية الله بك، حتى ترى وجه ربك حيث وليت وجهك، وتكون عند ذلك ملكوتياً، لا ترى إلا ملكوت السماوات والأرض.

الفصل الرابع

الحس قد يقوى سلطانه على السالكين

وكما أن للسالك قبساً يقتبسه من أنوار الملكوت حال مجاهداته حسه، فإن الحس قد يقوى سلطانه على السالك، فيوقعه في السيئات، فإذا تذكر، أسرع إلى التوبة – قال الله تعالى: ژ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ژ (الأعراف: 201). وقال تعالى: ژ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ژ (النساء: 31). وقال ﷺ : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) [رواه ابن ماجة في كتاب الزهد الباب 30]. وكل سالك لا يسلم من السيئات، ولو بنسيان ذكر الله تعالى أو اشتغاله بالنوافل وترك الواجبات التى يقتضيها الوقت. قال داود-- : (البار يسقط سبع مرات في اليوم) ومعنى ذلك – والله أعلم– أن الأعضاء السبع، لا بد لكل عضو منها من السقوط في كل يوم ولو مرة، ولو بترك القيام بشكر الله على سوابغ الآلاء المتوالية على كل عضو من أعضائه في كل نفس، بل وعلى كل شعرة وعظم وعرق، فإن عرقا صغيرا لو تنبه لجعل الحياة مرة بما يناله الإنسان من أصغر عرق في جسمه. وفى الجسم مئات من العروق ساكنة، لو ضرب منها عرق لتمنى الإنسان موته، وهو يغفل عن النعم المحيطة به، وفى نفسه، قال تعالى: ژ ٹ ٹ ٹ ڀ ڀ ڀ ژ (إبراهيم: 34). فإذا كان البار يسقط سبع مرات في اليوم، فكيف بالفاجر؟ ومن هذا نفهم قوله ﷺ: (لن يدخل الجنة أحدكم بعمله. قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال :ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) (رواه البخارى في كتاب الرقاق الباب 18، ومسلم في كتاب المنافقين الحديث 71-73، 75، 76، 78) ومعنى ذلك أن الأعمال الصالحة فعل الله في العبد وهى أجل نعمة من نعم الله علينا، يعجز الإنسان عن شكرها، ومن غفل عن تلك الملاحظة فهو تارك للشكر على النعم الغزيرة، وقد قرر الله –تعالى– الخطاب ليعلم فضله على الناس

بالعفـو والمغفـرة والتوبـة – أسـأل الله سـبحانه وتعـالى أن يمنحـني، وأهلـي، وأولادي، وإخواني، العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة – وأن يعيننا على شكره وذكره إنه مجيب الدعاء.

الفصل الخامس

شتان بين تزكية النفوس عند أهل الإيمان وغيرهم

إنما يسارع لتزكية النفس أهل الإيمان بالله -ﷻ- دون غيرهم وإن اجتهد غيرهم في تزكية النفوس، فإنما يريدون بتزكيتها تحصيل غايات فانية، ورياسات زائلة، وحظوظ دنيئة، كما يسارع الإنسان إلى تزكية نفوس البهائم، لتعيش داجنة، عاملة لخيرها، ولخير بنى الإنسان، ولذلك فإنهم التفتوا عن مناهج التزكية الحقيقية، التى بها يصفو جوهر النفس مما كدر صفوه، من أمراض الجمادات والنباتات والحيوانات والحظوظ الإبليسية، حتى تتخلى عن ملابسة الحظوظ والأهواء التى تحجبها عن المسارعة إلى القيام بما خلقت له، وعن تحصيل العلم النافع من مآخذه الحقيقية، وعن العمل الصالح الذي يكون به المؤمن في معية الله تعالى، مجملاً بالعقيدة الحقة، والأخلاق الربانية، والأحوال السنية، والأعمال السنية.

الفصل السادس

الفرد المسلم هو المجتمع

ولما كان المسلم في الحقيقة هو فرد ذاته، وهو المجتمع في أهميته، لأنه وإن كان المسلم واحداً إلا أنه مطالب شرعاً بما لا يعمله إلا المجتمع، لأن كل مسلم جعله الشرع كعضو، وجعل المجتمع كالجسم. قال : (المسلمون كالجسد الواحد إذا مرض عضو منه تداعى له بقية الجسد بالسهر والحمى) [رواه البخاري في كتاب الأدب الباب 27، ومسلم في كتاب البر الحديث 66]. وقال تعالى: ژ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ژ (المائدة آية: 32). فكأن الفرد الواحد من المسلمين هو المجتمع في الحقيقة، إذ بصحته صحة جميع الجسد، فهو مطالب أن يزكي نفسه ليطهرها من العقائد الفاسدة.

الفصل السابع

وسائل تزكية النفس

بتحصيل العلم بالله وبأيام الله تعالى من القرآن الكريم، ومن بيان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ والأئمة الهداة الراشدين رضي الله عنهم والعلم بأحكام الله. تعالى من مآخذه الحقة، للعمل لا لمماراة العلماء والسيادة على الناس. وكل مسلم مكلف أن يتعلم مالا بد له منه، حتى يقوم بالواجب عليه لله ولرسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وللوالدين والأقارب ولجماعة المسلمين، من الفنون الصناعية والتجارية والزراعية، وما يلزم ذلك من وسائلها بقدر الاحتياج إليه. كل ذلك، بعد تحصيل ما به يكون المسلم مسلمًا حقًا عالمًا بمنزلته عند الله تعالى وعند رسوله الله، عالماً بالمسئولية الموجهة عليه.

الفصل الثامن

طرق تزكية النفس

أقول قولي هذا لأبين لإخواني أن طريق تزكية النفس أن يكون أولاً بالأخذ من كتاب الله تعالى، ومن كلام رسوله﴿ﷺ﴾، فيما يتعلق بالعقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق وتدبير كل راع رعيته من والد، أو وال أو أمير، وأن تكون بقية الفنون اللازمة للعمل، كما أمر الله به أمرًا ثانويًا كعلم الرياضة: حسابًا وهندسة ومنطقاً وغيرها.

الفصل التاسع

الفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة

فإن بعض من جهلوا طريق تزكية النفس أفسدوا على الناس نفوسهم، بل وعقائدهم بل وآرائهم وأخلاقهم، إن ففتحوا قبور اليونان والفرس، وأخرجوا فحم آراء، ودخان أطماع، وشرار وخدع، وأعجبوا بها كل الإعجاب، ولفتوا إليها أفكار من لا علم لهم بعلوم الإيمان واليقين، ولا معرفة لهم بحكمة أحكام الله، وأيام الله، ولا علم لهم بآيات الله – ومعلوم أن تلك العلوم المتعلقة بضروريات الحياة الكونية، لها مجانسة ومشاكلة للنفوس، والعقول والعلوم الشرعية المتعلقة بالإسلام والإيمان والإحسان والإيقان ومعرفة الله تعالى، ومعرفة النفس، ونيل فضل الله العظيم ورحمته، ومجاورة أنبيائه الكرام في مقر رحمته، ونيل رضوانه الأكبر في مقعد صدق، لا تجانس العقول، ولا تشاكل النفوس البشرية والبهيمية، إلا بعناية من الله، وتوفيق، وعصمة منه سبحانه قال تعالى: ﮋ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁﮂ ﮊ (الكهف: 17).

الفصل العاشر

علم الدنيا وسيلة لعلم الآخرة

ولما كانت علوم الهندسة والحساب والمنطق وما يلزمه من الجدل والمناظرة والبحث والاختلاف كلها فنون لازمة لتحسين حالة المعيشة، وراحة الأبدان من المضار، والقلوب من الشواغل، ليتفرغ المسلم للإقبال بالكلية عن مولاه الذى أوجده وأمده، فتلك الفنون وسائل فعالة، لتيسير ما به فراغ القلوب، لتحصيل العلوم النافعة، وراحة الأبدان للعمل بالعلم النافع، ولينتفع الإنسان بما خزنه الله له من النعم في كنوز الأرض، وفى خزائن البحار، وفى بطون الغابات، وفى طبقات الجبال، لتظهر آيات الله تعالى في كونه المحسوس، بقدر ما ينكشف للإنسان من خواص الكائنات وما يتضح له من مراتب الوجود وقد اجتهد السلف الصالح في تقريب بعض الفنون، التى تحصل عليها الإنسان في الأزمنة الماضية، بباعث الضرورة، أو بداعى الرقى والإثرة مما هو خير للمسلمين، حتى صححوا ما كان سقيماً من مبادئهم الكونية، وأتموا الناقص من الفنون، واكتشفوا ما خفى على السابقين، بما أشرق عليهم من نور القرآن والسنة؛ لأن الله تعالى حث المسلمين على النظر في الكائنات، والبحث في الآيات، ولكن خفيت حكمة ترجمة تلك العلوم على أهل النفوس اللقسة، فمنهم من ذمها وقبحها، لجهله بحكمة ترجمتها، من اختراع ما لا بد للمسلمين منه، وعلم أخلاق الناس، وطبائع البلاد، والقيام بما أمرنا الله –تعالى– من الجهاد في سبيله والرحمة بعباده، والعمل بمراضيه.. وكل ذلك لا يكون إلا بتيسير الآلات والأدوات وكثرة المخترعات، وعلم المعادن والنباتات ومعرفة، الحساب والهندسة والمنطق.

الفصل الحادي عشر

استعمال علم الدنيا في غير ما ترجم له

ومنهم من استعمله في غير ما ترجم له، فظن أنه لا يعرف الله إلا به، وفتح بابا من الشر على المسلمين فرق جماعتهم، حتى أظلمت القلوب وأشربت حب الشبه والشكوك والريب، وحصلت المنافسة والبغضاء والتفرقة، حتى تفرق المسلمون شيعاً فتركوا الكتاب والسنة فتنجست النفوس، وصارت تزكيتها بتلك الطرق غمسها في حضيض الخبائث، وسجنها في أسفل سافلين البهيمية ولوازمها، والبشرية ودواعيها، والإبليسية ومقتضياتها، فصار المسلم حرباً على دينه، انفكت عروة الدين عروة عروة، فرفعت الأمانة، وتركت الزكاة والبر، والصلة بين الأقارب بعد أن كانت بين الطوائف المتنائية من المسلمين، ثم ارتفعت الرحمة والعاطفة وصارت من المسلمين لأعدائهم، بما أشربوا في قلوبهم من حب فلسفة اليونان والرومان والفرس، حتى دعاهم ذلك إلى حب الفرنجة والإعجاب بهم وتقليدهم، ثم ترك الصيام إلا عند من عصمهم الله، ثم تركت الصلاة إلا عند من وفقهم الله، ثم ظهر الربا علناً، وصار كالبيع، ثم انتشر الزنا، فتغيرت معالم السنة بالبدع المضلة، وأنوار الشريعة السمحاء بالظلمات المضرة، حتى صار بعض حملة العلم الشرعي أنصار تلك المباديء، وأئمة يدعون إلى البدع للأعادي، ولا حول ولا قوة إلا بالله كل ذلك لأننا جعلنا علوم اليونان والرمان والفرس أولى بالأخذ بها في الدين عقيدة وأخلاقاً وتربية، من الأخذ بالقرآن والسنة وعمل أئمة الهدى، فصار المسلم يمكث نصف عمره في تحصيل العلم، فلا يزداد إلا قسوة في قلبه وجفوة في طبعه، وإنكاراً على فضائل الدين، وازدراء بأعمال الصالحين، وتهكماً بمن أقبلوا بكليتهم على الله، محتقرين الدنيا وما فيها، يرى زيارته للأمير، أو مجالسته للغني، أو سعيه في تحصيل وظيفة أو رياسة، أحب إليه من الله ورسوله وعمل بكتابه سبحانه، وبسنة نبيه ﴿ﷺ﴾، كل ذلك مما دعا إليه أعداء الحق، بوضع عقائد

بدعية وإقامة الأدلة الجدلية بالقوانين المنطقية، حتى جرؤ طلبة العلم على سوء الأدب، بوضع الاعتراضات والشبهة، وحصلت العداوة بينهم، كما قال تعالى: ﮋ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ (سورة الأنعام: 159). وكلما جاءت أمة لعنت أختها.

ٱلْعِلْـمُ هَـلْ فَهْمُـهُ يَكْفِـي لِتَقْـرِيبِي	إِلَىٰ مَقَـامِ ٱلتَّـدَانِي نُـورِ مَحْـبُوبِي
إِنْ كَـانَ هَٰـذَا فَمَـالِي قَـدْ أَمِيـلُ إِلَىٰ	دَاعِي ٱلْهَوَىٰ بَعْدَ فَهْمِي بَعْدَ تَأْدِيبِي
ٱلْعِلْـمُ كَٱلْمَـالِ بُرْهَـانٌ عَلَـىٰ نَفْسِـي	إِنِّي تَطَهَّـرْتُ أَوْ إِنِّي كَمَكْلُـوبِي
أَمَّـا ٱلْيَقِـينُ فَبُرْهَـانٌ عَلَـىٰ قُـرْبِي	صَـحَّحْتُ حَـالاً لِتَأْيِيـدٍ وَتَرْغِيـبِ
ذُقْ بِـٱلْيَقِينِ مَقَـامَ ٱلْفَـرْدِ وَٱسْـتَجْلِي	سِـرَّ ٱلْحَقِيقَـةِ مِنْـهُ غَيْـرَ مَكْـذُوبِ
كَـمْ عَـالِمٍ تَائِـهٍ يَهْـوِي إِلَىٰ سُـفْلٍ	مُسَـارِعٍ لِلْهَـوَىٰ فِي كُـلِّ مَنْسُـوبِ
لَـوْ كَـانَ عِلْمِـيَ جَـذَّابًا إِلَى ٱلأَعْلَـىٰ	لَمَـا رَمَـانِي ٱلْهَـوَىٰ فِي سُـفْلِ تَغْـرِيبِي
ٱلْعِلْـمُ عِنْـدَ بَـنِي ٱلإِفْـرِنْجِ أَوْقَعَهُـمْ	فِي هُـوَّةِ ٱلظُّلْـمِ فِي كُفْـرٍ وَتَعْـذِيبِ
عِلْـمُ ٱللِّسَـانِ وَعِلْـمُ ٱلْكَـوْنِ هَاوِيَتَـا	شِـرْكٍ لِكُـلِّ ٱمْرِيءٍ فِي ٱلْعِلْمِ مَقْلُـوبِ
ٱلْعِلْـمُ بِـٱللَّهِ حِصْـنُ ٱلأَمْـنِ يَطْلُبُـهُ	فَـرْدٌ يَقُـولُ: أَيَا نَفْـسَ ٱلْهَـوَىٰ غِيـبِي
ٱلْعِلْـمُ بِـٱللَّهِ طُهْـرُ ٱلـنَّفْسِ ظَـاهِرُهُ	سَـيْرٌ إِلَى ٱللَّهِ فِي أَمْـنٍ وَتَرْهِيـبِ
وَبَاطِـنُ ٱلْعِلْـمِ كَشْـفُ ٱلْغَيْـبِ بَعْـدَ هُـدًى	كَشْـفُ ٱلْحَقَـائِقِ نَيْلِـي كُـلَّ مَطْلُـوبِ
فِي فَجْـرِ سَـادِسِ يَـوْمٍ لِلْمُحَـرَّمِ لِي	شَـوْقٌ شَـدِيدٌ إِلَىٰ فَـوْزِي وَتَقْـرِيبِي
ٱللَّهَ أَسْـأَلُ إِحْسَـانًا وَمَغْفِـرَةً	فَضْـلاً مِـنَ ٱللَّهِ أُعْطَـىٰ خَيْـرَ مَشْـرُوبِ
فِي حُظْـوَةِ ٱلإِجْتِبَـا أُعْطَـى ٱلرِّضَـا ٱلْحُسْـنَىٰ	بِٱلْوَصْـلِ أَحْظَـىٰ وَبِـٱلزُّلْفَىٰ وَبِٱلطِّيـبِ
مَـوْلاَيَ شِـبْتُ فَـوَفِّقْنِي لِمَـا تَرْضَـىٰ	يَانَفْـسُ بَعْـدَ مَشِـيبِي سَـارِعِي تُـوبِي
شَـيْخُوخَتِي تَقْتَضِـي جَـذْبِي إِلَىٰ رَبِّي	حَـتَّىٰ أُهَـنَّىٰ بِرِضْـوَانٍ وَتَرْحِيـبِ

يَارَبِّ هَــبْ لِي ٱلْعَطَــايَا مِنْــكَ وَاسِــعَةً   فَٱلْفَضْــلُ مِنْـكَ إِلَـٰهَ ٱلْعَــرْشِ مَرْغُــوبِي

أَكْــرِمْ بَــنِيَّ وَأَهْلِــي مِنْــكَ بِــٱلنُّعْمَىٰ   إِخْــوَانَ صِــدْقٍ وَأَكْــرِمْ كُــلَّ مَجْـذُوبِ

فِي دَارِ دُنْيَــا فَهَبْنَــا ٱلْفَضْــلَ وَٱحْفَظْنَــا   فِي دَارِ أُخْــرَىٰ فَهَبْنَــا خَيْــرَ مَوْهُــوبِ

الفصل الثاني عشر

حقيقة تزكية النفوس

أبين حقيقة التزكية التى أمرنا الله بها وحثنا عليها بقوله تعالى: ﭿ ﯾ   ﭿ (الأعلى: 14). وقوله سبحانه: ﭿ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭿ (الشمس: 9). ولا تكمل تزكية النفس حتى يعلم حق العلم أنها مفطورة على فطر، اقتضتها قواها التى ركب الإنسان منها، فالإنسان جامع لكل الحقائق الكونية، فهو وإن كان عالماً صغيراً، إلا أنه جمع جميع العالم، وزاد عليه، فهو مركب من الجماد، والنبات، والحيوان، والقوة الملكية، والقوة الإبليسية، وقد جعل الله تلك القوى وإن كانت متفرقة متحدة، فجماعها الإنسان، ومتى تحقق من يريد تزكية نفسه أنه جامع لكل تلك الحقائق، علم حق العلم أن أكثر قواه سفلى المصدر، سيىء العمل، أو نارى المصدر، شرير العمل، أو نورانى المصدر، خير العمل، أو نفخة القدس، وكل تلك القوى يقال لها إنسان فإن لم تنكشف للإنسان تلك الحقائق جلية حتى تكون كل قواه خاضعة للروح الملكية، أو للنفخة القدسية، هلك الإنسان. وإذا علم الإنسان حقيقته، علم مرتبته في الوجود وعرف ربه معرفة تجعله يخشاه بقدر علمه، ويخاف مقامه بقدر شهوده ويجاهد نفسه في كل أنفاسه، فلا يفخر ولو أجلسه الله على بساط مؤانسته، ولا يغتر ولو منحة كلمة (كن) للتصريف في كونه، ولا يخرج عن الوسط، فيهدم بقية القوى بترك رعايتها حق الرعاية، كما قال رسول ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) (رواه البخارى في كتاب الجمعة الباب 11) وكما قال الله تعالى: ﭿ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭿ (البقرة: 143) وإنما رفع الله الإنسان إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأجلس الإنسان على كرسي من نور، قدام عرشه، وواجهه بوجهه؛ لما جمع فيه من القوى المتضادة، والعناصر المفارقة، وأظهر فيه من لطائف ملكوته، وأنوار لاهوتهن وغرائب قدرته، وعجائب حكمته، ثم هداه السبيل، وأقبل به عليه بمعونته

وتوفيقه ولو كان روحاً مجردة، لما رفعه هذه الرفعة، أو جسماً مجرداً، لما أكرمه هذه الكرامة. قال الله تعالى: ﮋ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮊ (الإسراء: 70).

وقال سبحانه: ﮋ □ □ □ □ بم بى بي □ □ □ □تم ﮊ (الجاثية: 13).

هِـيَ ٱلـنَّفْسُ إِنْ زَكَّيْتَهَـا تَشْـهَدِ ٱلْغَيْبَـا　　يَلُـــوحُ لَهَـــا لاَ سَـــتْرَ ثَمَّ وَلاَ حَجْبَـــا
تُجَمَّـــلُ بِٱلأَسْـــرَارِ يُجْلَـــىٰ لَهَـــا ٱلْخَفَـــا　　تُشَـــاهِدُ أَنْـــوَارَ ٱلتَّجَلِّـــي تَـــرَى ٱلـــرَّبَّا
وَقَـدْ أَفْلَحَـتْ نَفْـسٌ تَزَكَّـتْ فَوُوجِهَـتْ　　بِوَجْـــهٍ عَلَـــيٍّ قَـــدْ أَضَـــاءَ وَلاَ رَيْبَـــا
أَضَـــاءَتْ لَهَـــا ٱلأَسْمَـــاءُ فِي أُفْـــقِ هَيْكَـــلٍ　　فَنَاوَلَهَـــا ٱلـــرَّاحَ ٱلطَّهُـــورَ وَلاَ شَـــوْبَا
هِـيَ ٱلـنَّفْسُ لَـوْ تَزْكُـو مِـنَ ٱلْحَـظِّ لَحْظَـةً　　لَهَـا تَسْـجُدُ ٱلأَمْـلاَكُ قَـدْ تَشْـهَدُ ٱلْغَيْبَـا
هِـيَ ٱلـنَّفْسُ رُوحُ ٱلْقُـدْسِ تُـنْفَخُ بِٱلصَّـفَا　　فَتَظْهَـــرُ أَنْـــوَارُ ٱلْغُيُـــوبِ لِمَـــنْ لَـــبَّىٰ
وَفِي طِينَـــةٍ نُفِخَـــتْ فَـــلاَحَ ضِـــيَاؤُهَا　　فَطَافَـتْ بِهَـا ٱلأَمْـلاَكُ وُهَـبَ لَهَـا ٱلْحُبَّـا
أَيَانَفْـسُ لَـوْ تَـزْكِينَ مِـنْ شَـوْبِ بَاطِـلٍ　　تَفُـــوزِينَ بِٱلإِقْبَـــالِ يَمْنَحُـــكِ ٱلْقُـــرْبَا
فَفِـي أَحْسَـنِ ٱلتَّقْوِيـمِ قَـدْ كُنْـتِ أَوَّلاً　　جَمَـــالَ جَمِيـــلٍ وَٱلْكِتَـــابُ لَنَـــا أَنْبَـــا
صَـــلاَةً عَلَـــىٰ نُـــورِ ٱلْقُلُـــوبِ مُحَمَّـــدٍ　　بِهَـــا نُعْـــطَ فَضْـــلَ ٱللَّهِ وَٱلْقُـــرْبَ وَٱلْحُبَّـــا

الفصل الثالث عشر

أمراض النفوس وعلاج كل منها

نبتديء أولا بذكر أمراض النفس، نذكر كل مرض ونفصل أعراضه وأسبابه، وعلاجه، والأدوية اللازمة له:

أمراض العلماء الربانيين– أمراض الزراع – أمراض التجار – أمراض الدعاة إلى الحق– أمراض العامة.

أولا القسم الأول: أمراض الخفا للعلماء الربانيين

العلماء الذين أعنيهم في كلامي هذا هم الذين منحهم الله تعالى الفقه في دينه، ووهب لهم سبحانه –وتعالى– علم الرعاية في أحكامه، حتى علموا حكمه في كل حكم، فسارعوا إلى المراد له ﷻ فيما حكم لا إلى الحكم كما يفعل أهل التقليد، الذين لا همَّ لهم إلا تأدية المأمور به، بحركات وسكنات وألفاظ مجردة عن الرعاية، التى بملاحظتها يصير العالم كأنه يرى الله أو تحصل له الخشية من رعاية أن الله يراه، فيكون: إما في مقام الإحسان لاستغراقه في شهود آيات الله وحكمته، ومعاينة آثار وأنوار عجائب قدرته، فيكون روحانيا، وهو جسمانى وملكوتياً وهو إنسان حيوانى، جامع بين الضدين، غلبت عليه أنوار الروح فأخفت ظلال جسمه ففارق لوازم البشرية استحضاراً، أو مقتضيات الآدمية حضوراً، فقام عاملاً مخلصاً لله بالله، كأنه يرى الله أمامه أو مخلصاً لله محجوباً عن شهود أنه بالله فيكون موقناً أن الله يراه في عمله. وهؤلاء هم العلماء الذين أعنيهم بكلامي.

أمراضهم خفية عن العقول، غامضة عن النفوس، لأنهم مع كمال الإخلاص يشوب توحيدهم شوب بواعث الهمة على العمل، فيحجبون عن خالص مشاهد التوحيد، إما للعلة الباعثة، أو لعدم تصفية مشهد التوحيد من شوب نسبة العمل

لأنفسهم، بشهود المجاهدات منهم وهى أمراض "الخفا" التى تظهر أنها قربات إلى الله وشوق إليه، وحب فيه، وقد يقوى هذا المرض. حتى يدعو إلى شهود الإلهية في العامل من حيث لا يشعر، فيأنس بالعمل، ويطمئن بالعرفان، والأنس بالعمل والطمأنينة بالعرفان شرك أخفى في طريقنا هذا، ومن شغله العرفان عن المعروف، والعمل عمن هو مول وجهه شطره واحتجب بنسبة العمل لنفسه، فهو مشرك في طريقنا، وإن كان من أهل الفردوس الأعلى، ومرض الإلهية أعظم مرض عضال يصاب به العلماء الربانيون.

وقد جعل الله له من أنواع المعالجات أمرها، ومن العقاقير أحدها، قال تعالى: ﮋ ۀ ۀ ہ ہ ۂ ۂ ھ ھھ ﮊ (الإسراء: 82). ومن دواء هذا المرض قوله تعالى: ﮋ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮊ (المؤمنون: 12). وقوله: ﮋ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮊ (الواقعة: 62). وقوله تعالى: ﮋ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ﮊ (الإنسان: 1-2).

وأهل العلم يعلمون أن الغواية غير الضلال؛ فإن المؤمن قد يغوى ولا يضل، لأن الضلال هو الكفر بالله تعالى، وأما الغواية فهي معصية الله تعالى، شهوداً أو ذوقاً أو وجداً أو علماً أو بالجوارح. وإن من حجبه العلم والمعرفة، والعمل والتقوى عن كمال التوحيد الذى هو الجوهر المقصود بالذات لله تعالى غوى. والغواية قد تحصل من الإنسان بالتأويل أو لقصد نيل الخير الذى يظنه قال تعالى: ﮋ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﮊ (طه: 121).

المرض الأول

الفرح بإقبال الناس سكوناً إليهم من غير ملاحظة، وقد جعل الله سبحانه لهذا المرض علاجاً للمؤمنين. قال تعالى: ژ ڻ ڻ ڼ ڼ ۀ ۀ ہ ۂ ۃ ۃ ﮪ ﮪ ﮬ ﮬ ﮭ ے ے ۓ ژ (آل عمران: 14). وقد خاطب الله رسول الله ﴿ﷺ﴾ وأراد بخطابه المؤمنين، وهم من علمت مراقبة الله وخشية منه فقال تعالى: ژ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ژ (النصر: 1).

تناول من هذا الطهور، وأسكن بكلك إلى ربك، وأفرح بفضل الله وبرحمته، وسبحه، واستغفر عند إقبال الخلق، ولا تفرح بحالك وعملك؛ لأن العصمة من الزلل بالله تعالى.

المرض الثاني:

النظر إلى أهل المعصية بعين ملؤها المقت والغضب. وقد جعل الله لهذا المرض دواء، قوله تعالى: ژ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌژ (فصلت: 33). وقوله تعالىژ ہ ۂ ۃ ۃ ﮪ ﮪ ﮬ ژ (النحل: 125). وقوله تعالى: ژ ڀ ڀ ڀ ژ (الفتح: 29).

المرض الثالث:

الأنس بما يشهدونه وإن خالف ما عليه الجماعة. وقد جعل الله تعالى لهذا المرض دواء، وهو قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً﴾(النور: 63). وقوله تعالى: ﮋ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﮊ (الحجرات: 2).

المرض الرابع:

استعجال النقمة لمن خالفهم، والكرامة لمن وافقهم، جهلاً بسر القدر، فقد يتوب المخالف فيكون من أكمل أولياء الله، وقد يكون الموافق لهم عدو الله، حفظنا الله من المعاصي، وقد شفى الله هذا المرض بقوله: ﮋ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﮊ (البقرة: 216). وقوله تعالى: ﮋ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﮊ (الحجرات: 11). وكم سارع إلى الكفر رجال أظهروا الإيمان، ولم يحصل لهم الأنس بالإيمان، ولم ينالوا مآربهم فارتدوا على أعقابهم. قال تعالى: ﮋ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮊ (المائدة: 41). وسر القدر غيب على أهل النفوس الزكية.

المرض الخامس:

الغضب على من لم يقم بالواجب عليه لهم وذلك مما يدسه عليهم عدوهم من أن المقصر في حقهم مقصر في حق رسول الله ﴿ﷺ﴾ والحقيقة غير ذلك؛ فإن ذلك مرض خفي لأن المريد قد يقوم بالواجب عليه لله ولرسوله غير ملاحظ الواجب عليه للعالم؛ لأنه إنما حجبه، ليسارع إلى مرضاة الله ومرضاة رسوله باتباعه وشفاء تلك الأمراض قوله تعالى: ﮋ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﮊ (الحشر: 9).

المرض السادس:

الغرور بما يهب الله لهم من الفقه والفهم، حتى قد ينظروا إلى من سبقهم بعين المساواة، أو يظنون فيهم التسامح والتساهل، أو عدم الضبط وقد يرمونهم بما لا يليق أن يكون بين المؤمنين. ودواء هذا المرض قوله تعالى: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﮊ (الحشر: 10). أقول قولي هذا وأعتقد أنه لا عصمة إلا لرسول الله ﴿ﷺ﴾ الذي عصمه الله بقوله تعالى: ﴿ﮋ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﮊ (النجم: 2). وعصمه من الناس بقوله: ﮋ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮊ (المائدة: 67).

وأعتقد أن الحكمة الإلهية يهبها الله لمن يشاء، وإن خبر من سلفنا، قد يكون بعصمة من الله وإلهام منه، وكمال إخلاص من العالم لله - تعالى – بالله، ويكون فهمنا عن عجلة وحظ خفي علينا، وشهوة دعا إليها أمل أو طمع. والله يغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم.

المرض السابع:

ميل نفوسهم إلى مجالسة الأمراء وزيارتهم لدسيسة خفية عليهم، هى أن يكونوا أعواناً للحق فيعظم الداء، ومن جالس جانس وقد عد الله لهذا المرض أنفع الأدوية، وهو قوله تعالى: ﮋ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛﮊ (هود: 113).وهذه - إن لم تكن كل الأمراض– هى أصولها، التى تتفرع منها كل الأمراض وقد يكون مرض واحد يتفرع منه عدة أمراض، فيجهل الطبيب أصل المرض فيعالج الفروع ويترك الأصل، فيزداد المرض. ولو أن الطبيب اعتنى بالمرض الأصلي، لزالت كل الأمراض الأخرى وشفاه الله.

ثانياً: أمراض الأخفى للعلماء الربانيين

ولهم أمراض أخرى من أمراض الأخفى فوق أمراض الخفا أهمها:

المرض الأول:

اشتغالهم بتربية المريدين، وتعليمهم، فيهملون مجاهدة أنفسهم ورعايتها حق

الرعاية، وقد جعل الله دواء هذا المرض في قوله تعالىﮋ ﭬ ﭭ ﭮ **ﭯ ﭰﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶﭷ** ﮊ (المائدة: 105).

المرض الثاني:

وهنا مرض آخر فوق هذه الأمراض، كلها ينتج عن الشوق إلى المفارق، فيخفى على العالم واجب وقته في مرتبة الوجود الذى أقامه الله فيها، فيأنس بالمفارقة أنساً بنسبة لازم رتبته الكونية، فيحصل له الشوق الشديد، الذى يخرجه عن الوسط، فيفارق مكانته الإنسانية في كون التكليف بما لاح له من أنوار الملكوت في نفسه وفى الآفاق، وفى السماوات، وفى الأرض، فقد يقع في الفتنة المضلة، أو الضراء المضرة. ودواء هذا المرض قوله تعالى: ﮋ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ **ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ** ﮊ (البقرة: 143). وقوله ﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾ : (اللهم إني أسألك الشوق إليك بغير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة) [رواه النسائى في كتاب السهو الباب 62، وأحمد في الجزء الرابع صفحة 264، والجزء الخامس صفحة 191].

المرض الثالث:

وهناك مرض فوق هذا كله، وهو أن ينكشف له نور قوله تعالى: ﮋ   بم بى بي   تم ﮊ (الجاثية: 13). فتسخر له الكائنات كلها طوعاً لأمره ومسارعة إلى هواه؛ لأنه بجواذب العواطف الإلهية يتفضل الله عليه فيصير عند ربه، ويمن عليه بأن يجعل له ما يشاء: سر قوله تعالى: ﮋ ﯓ **ﯔ ﯕ ﯖ ﯗﯘ** ﮊ (الزمر: 34). فيلتفت لفتة تدعو إليها الرحمة، التى جمله الله بها لعباد الله تعالى، فيتجاوز حدها إلى حال الغيرة، التى لا تكون إلا لله تعالى عند انتهاك حرماته، تنفيذاً على تعدى حدوده بسيف، أو بسوط الشريعة، لا بنار الحال وشرار الابتهال، فيسرع بعامل الغيرة للغضب، وليس بيده سوط، ولا سيف الشريعة، فيكون نظر بعين التقييد في

الإطلاق، مع أن الناظر بعين التقييد في الإطلاق، قد ينظر بعين الإطلاق في التقييد فيما يلائمه، فيكون انحط عن الرتبة العلية – وقد داوى الله هذا المرض بقوله تعالى: ﮋ ﭿ ﭾ ﭽ ﭼ ﭻ ﭺ ﭹ ﮊ (الأعراف: 199).

ثالثاً: من الأمراض الظاهرة لعلماء الدنيا الجهلاء بالآخرة

المرض الأول:

أن الرجل منهم إذا أخطأ في حكم، وفشا بين الناس، وعورض فيه، كره أن يخضع للحق، وقام مجادلاً بالباطل، ينصر نفسه على الحق، غير مبال بسخط الله وغضبه، إذا أقام الحجة على خصمه أنه محق ورضى الخلق عنه، فيكون أبطل الحق، وأحق الباطل، خوفاً على نفسه من الفضيحة بين الناس، ولو أنه عالم كما يدعى لأعلن خطأه وغلطه بين العالم، ليرضى الله تعالى ورسوله ﷺ غير ميال بالخلق، فإن الإنسان محل النسيان. ومن كبرت نفسه أن يرجع للحق بعد الخطأ أقام الحجة أنه من أهل جهنم.أعاذنا الله من سوء الأدب مع الله تعالى، ومن تعظيم الخلق في جانب الحق حتى يكره أن يحتقر أمامهم فيتمادى على الباطل. وقد داوى الله هذا المرض بقوله تعالى: ﮋ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﮊ (الأحزاب: 39). ومعلوم أننا مكلفون باتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وقال تعالى مداوياً هذا المرض العضال: ﮋ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮊ (الصف: 7). وقال تعالى في أنفع الدواء لهذا الداء: ﮋ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﮊ (المائدة: 45). وقال تعالى مثنياً على أهل مقام الخوف: ﮋ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮊ (الرحمن: 46).

فالعالم الذي يخطيء في الحكم ثم يذكر بالحق فيأبى أن يخشع الحق، خوفاً من أن يشاع عنه الخطأ بين الناس فيستحقر، كان من الذين شنع الله عليهم بقوله تعالى: ﮋ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﮊ (النساء: 108). ومثل هذا عند العلماء بالله تعالى أدنى

من الجهلاء، لأن هذا من أكبر أمراض المنافقين ولو أن مدعى العلم صدق الله تعالى فيما أخبرنا به من يوم القيامة ومن الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى، ومن الإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار، لذاب قلبه خشية من الله تعالى أن يرضى الناس ويغضبه وأن يخشى الناس ولا يخشاه، وأن يحب المنزلة عند الناس بسقوطه من عين الله تعالى أعوذ بالله من الذنوب التى تغير النعم، ومن الذنوب التي توجب النقم، ومن الذنوب التى تهتك الحرم، ومن الذنوب التى تديل الأعداء، ومن الذنوب التى تحبس غيث السماء.

المرض الثاني :

المرض تأويل الأحكام بما يناسب هوى الخلق، والعمل بالرخص لجلب الأموال، وميل القلوب إليهمن خصوصاً فيما يتعلق بالطلاق والميراث والمعاملات، فترى الرجل منهم يفتى بغير ما أنزل الله تعالى، اجتراء على الله تعالى وعلى رسوله ﴿ﷺ﴾ ليكتسب مالاً، أو شهرة، أو منزلة في قلوب الأمراء، وقد ضرب مالك بن أنس وأهين ليفتى أن طلاق المكره يقع عليه فأبى، وضرب أبو حنيفة رحمه الله تعالى لتولي القضاة فأبى وكان الرجل يسأل أحد الصحابة عن المسألة المعلومة لأقل صحابى، فيرده إلى غيره حتى يرجع إلى المسئول الأول؛ لأنهم –رضى الله عنهم– يعلمون الناس بقول "لا أدري"، حتى يقتدي بهم من بعدهم وكان إذا سئل أحدهم عن الفتية يرد السائل إلى الأمير، ليكون خاملاً بين الناس، وإنما يتعلم العلم ليعمل الإنسان به في نفسه، حتي يكمل نفسه بالعلم والعمل، وهذا المرض داواه الله تعالى بقوله: ﮋ ﮬ ﮯ ﮯ ﯓﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﮊ (المائدة: 13). وهؤلاء هم الذين يكذبون على الله تعالى: وعلى رسوله متعمدين الكذب قال : (من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) (رواه البخارى في كتاب العلم الباب 38، وكتاب الجنائز الباب 33، وكتاب الإيمان الحديث 112) ومن أفتى بحكم عالما أنه برأيه

وحظه ليس له مأخذ من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ولا من سنة الهداة المهتدين، فهو من المتعمدين الكذب على رسول الله ﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾.

المرض الثالث:

إهمال العناية بكتاب الله وبسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ وبأئمة الهدى، وضياع الأنفاس النفيسة، والأعمار الطويلة، في خدمة كتب أهل الجدل، والمناظرة، والفرق المختلفة من المتكلمين، مما يثير ثائرة الأخلاق ويفسد العقائد، ويمزق الجماعة، ويكثر الخلاف بين المسلمين: هذا الداء عضال جداً لأنه أذهب نور الإيمان من القلوب، ومحالين الأعضاء لعبادة الله فتراهم -هم وتلاميذهم- يمضون سواد الليل، وبياض النهار في فهم الأقيسة، والنفي والإثبات والسلب والإيجاب، وجعلوا المواضيع التى يمرنون عليها نفوسهم صفات الله تعالى، كما يتمرن المتعلمون بحفظ أراجيز الجاهلية وقصائدهم، ليطبقوا عليها القواعد النحوية والصرفية تقوية لاستقامة ألسنتهم، حتى صارت العقائد الدينية كالمسائل الحسابية والهندسية، التى تعطى للتلاميذ ليشحذوا بها قواهم الفكرية ضبطاً للقواعد.

أدى هذا المرض -والعياذ بالله تعالى- إلى سوء الأدب، فصار من السهل عندهم أن يوردوا الاعتراضات على الصفات الإلهية، وعلى الكلام الإلهي وعلى عمل القدرة الإلهية، ولا يصدر هذا الاعتراض والانتقاد من قلب فيه خشية لله تعالى وتراهم مع هذا كله يجعلون هذا الجهل علماً وتلك البدع المضلة عملاً ويقررونه في المجتمعات أمام النشيء من طلبة العلم حتى يملأ قلوبهم استهانة بكلام الله وكلام رسوله ﴿ﷺ﴾ وإنكاراً على آيات الله تعالى التى أجراها على أيدي رسله وأوليائه حتى بلغ منهم سوء الأدب أن أحدهم إذا قال له خصمه: قال الله أو قال رسول الله أو فلان

الفلاني قال له تكلم معي بالعقل. ومن أراد أن يظهر التقوى خوفاً على نفسه من تشنيع العامة أول الآيات أو الحديث إلى ما يلائم حظه وهواه، غير هياب من الله تعالى، ولا وجل من لقاء الله، وقد انتشر هذا المرض حتى عم أكثر طلبة العلم، إلا من عصمهم الله، وقليل ما هم وصارت تلك البدع المضلة هى السنة عندهم، وأن اختيار العلماء لرفعة شأنهم بين الأمة لا يكون إلا بإتقان تلك البدع، حتى كأن السنن الماضية للإسلام، والمآخذ المحققة لأحكامه نسخت بأفكارهم والله تعالى يقول: ﮋ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﮊ (الأحزاب: 40). ومعنى ذلك، أن شريعته لا تنسخ أبدا فمن ابتدع بدعة سيئة في دين الله، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. وقد داوى الله هذا المرض العضال بقوله تعالى: ﮋ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﮊ (الفرقان: 30). وقوله تعالى: ﮋ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﮊ (الإسراء: 45-46).

كل مؤمن يعلم أن الرسول ﴿ﷺ﴾ معه، ولو كان في القرن العشرين أو أكثر، لأن المراد من الرسول الكتاب والسنة. ومن استظهر على كتاب الله وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فتلك الآيات تجره بذيلها إليها فإن من خالف رسول الله في حياته المحمدية، ومن خالفه بعد عشرين قرناً، سواء عند الله تعالى، وإنما هى نفوس شريرة أعدت للضلال والإضلال. أعاذنا الله من أهل الشر وقد شنع الله بقوله: ﮋ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﮊ (المنافقون: 4).

الباب الرابع

النفس الزكية والإيمان والعصمة

الفصل الأول

رتبة النفوس فوق مراتب الوجود كلها

قال الله تعالى: ﮋ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩﭪﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮊ (الزمر: 33-35). المعجزات حجج على غير المؤمن وسراج منير يقتبس منه المؤمن نور الأحوال المحمدية، التي يجمل الله بها ورثته عليه وعليهم الصلاة والسلام، إن الله سبحانه وتعالى جعل رتبة النفوس فوق مراتب الوجود كلها، فإذا زكى المسلم نفسه حتى بلغت مراتب كمالاتها النفسانية تجملت بجمال نشأتها الأولى؛ لأن النفوس من عالم الأمر، وإنما قهرها الله سبحانه وتعالى على ملابسة الأجسام، وهي مفارقـــــــــــــــــة لهـــــــــــــــــا،

ﮋ □ □ □ □□ ﮊ (الأنعام: 18). للحكمة العلية التي منها نيل كمالاتها بالأجسام، ونيل الأجسام كمالاتها بالنفوس، ولله ﷻ حكم اختص -سبحانه بعلمها- إذا شاء أن يحيط عبداً من عباده بشيء منها تفضل عليه، قال الله تعالى: ﮋ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﮊ (البقرة: 255).

الفصل الثاني

النفس الزكية تقبل المأمور به وتترك المنهي عنه

نهى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ الصحابة في ليلة من ليالي غزوة تبوك على أن يخرج أحد منفرداً، وكان ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ إذا نهى عن أمر تركه الصحابة -رضوان الله عليهم- بعزيمة؛ لكمال يقينهم أنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ لا ينطق عن الهوى، ولا ينطق إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، فدعت الضرورة رجلاً لأن يخرج لقضاء حاجة الإنسان، وآخر لرد بعير له فر منه، فهبت ريح عاصفة، فاختنق الأول، واحتملت الثاني، كما سيفصل في هذه الحادثة. ينكشف لنا حقيقة لا بد من النظر فيها بعين العبرة، وهي أن الإنسان قد يؤمر بالأمر فيقبله ميقنا، وتعروه دواع تجعله يترك العمل به، وقد ينهى عن عمل فيتركه ميقناً وتعروه دواع تجعله يعمله بلا روية، فيحصل من ذلك ما لا يحمد في الدنيا والآخرة، فعلى المؤمن الكامل أن يتروى في كل حادثة تنزل به، حتى لا يترك عملاً أمر به، ولا يعمل ما نهى عنه، مهما قضت عليه الضرورة، وذلك شأن المستبصرين المؤمنين. قال الله تعالى: ﮋ ﮉ ﮊ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮋ (الأعراف: 201).

ولما كان عمل الصحابيين بما نهى عنه رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ لم يكن لمخالفة، ولكن لضرورة أنجاهما الله —تعالى- فشفى الله الأول بنظر رسول الله ﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾ وسقط الآخر على جبال طيء سالماً، فرده بنو طيء على المدينة لرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ وهكذا كل مؤمن دعته الضرورة للوقوع في محظور، ناسياً أو مضطراً، فإن الله تعالى يمنحه الذكرى فيتوب إلى الله، فيغفر الله له، وإنما العقوبة لمن فعل المنهي أو ترك المأمور به، انتهاكاً لحرمة الله، غير مبال بعقوبته سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﮋ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮋ (النساء: 110).

الفصل الثالث

لكل جواد كبوة

إن تلازم الإيمان والعمل، لا يقتضى العصمة وإن المؤمن قد يخطئ، وما يقع فيه المؤمن من خطأ لا يجرده من الإسلام، فعندما يكون المرء وثيق الإيمان، كثير الطاعات، طويل المراقبة لله فإن أخطاءه تقل لا محالة. وما قد ينزلق إليه من سيئات يعتبر غريباً على حياته، غرابة الشذوذ بالنسبة إلى القاعدة، وطبيعة الخطأ من رجل هذه حالة تجعل لسيئته صفة خاصة، فهو لا يقصدها، ولا يستريح إليها، ولا يستقر عليها، كالسائر في طريق ما إلى هدفه، لا يفكر إلا في أعماله وآماله. فإذا بقدمه تخبط في حفرة غير منظورة، أو تمر بقشرة فاكهة ملقاة، فإذا بالمسكين يهتز ويضطرب ويهوى إلى الأرض. إنه يخجل من سقطته ويقوم منها شديد الضيق والسخط!!

كذلك قد تزل قدم المؤمن وهو سائر في طريقه إلى الله، فيلم بعمل لا ينبغي منه، ثم لا يكاد يتورط فيه، حتى ينزع عنه وهو بادي الألم عميق الحسرة.

هذه السيئات لا تصم سيرة المؤمن، ولا تهدم شخصيته، وهى من قبيل: (لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة).

الفصل الرابع

آثار خليقة الإنسان المزدوجة

ولما كانت خليقة الإنسان مزدوجة. يلتقى فيها عنصران: أحدهما من السماء، والآخر من الأرض، فإن آثار هذا الاختلاط تبدو في سلوك الإنسان، وليس يستغرب على طبيعته أن تخلد إلى الأرض لحظة ما. ومن ثم جعل الله سبحانه —وتعالى– دائرة عفوه تتسع لهذه السقطات: ژ ﮕ ں ں ڻ ڻ ڼ ڽ ﮱ ۀ ہ ۂ ۂ ژ(النجم: 32) وعلل هذا العفو الكريم بقوله: ژ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ے ے ۓژ (النجم: 32).

على أن هذه المزالق التى قلنا تعترى الإنسان وهو في طريقه إلى ربه يؤدى واجبه ويقيم حقوقه، ويتحرى رضوانه. وما يصاحب هذا اللمم من ألم وما يسبقه من غفلة، وما يعقبه من دهشة ويقظة ومتاب. ذلك كله يكشف سواده، ويخفف عواقبه، وحسب صاحبه من عقاب دوى هذه السقطات في نفسه، وإسراعه بالإنابة إلى الله، يجأر بالدعاء... وفى مثل هذه الحالات يساق قوله تعالى: ژ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ژ (الزمر: 33-35). ژ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ژ (العنكبوت: 7).

إِنَّ ٱلْعَنَاصِرَ مَجْمَعُ ٱلأَضْدَادِ   فَى ٱلظَّلاَمُ بِهَا دَوَامُ جِهَادِ مِنْكَ ٱلنَّجَاةُ

يَاهَيْكَلِي فِيكَ ٱلْعَنَاصِرُ جُمِّعَتْ   بِنِعْمَةِ ٱلإِرْشَادِ فِي هَيْكَلِي تَخْفَىٰ عَنِ

إِبْلِيسُ مَا إِبْلِيسُ إِلاَّ شُعْلَةٌ نَفْسِي   ٱلأَفْرَادِ

وَشَيْطَانِي وَحَظِّيَ وَٱلْهَوَىٰ وَٱلْقَادِرُ   قَدْ جُمِّعَتْ لِلْحَرْبِ وَٱلإِيقَادِ يَهْدِي

ٱلْمُعْطِي ٱلْحَكِيمُ هُوَ ٱلَّذِي   ٱلْعَنَاصِرَ وَهْوَ رَبٌّ هَادِ

بِغَرِيبِ حِكْمَتِهِ يُزَكِّيهَا بِمَا مَوْلاَيَ   يُولِيهِ مِنْ رُشْدٍ وَمِنْ إِسْعَادِ بِٱلرُّوحِ مِنْكَ

فَٱجْذِبْنِي إِلَيْكَ مُؤَيَّدًا مَوْلاَيَ وَفِّقْنِي   بِوَاسِعِ ٱلإِمْدَادِ حُبَّ ٱلْوَلاَيَةِ حَقِّقَنْ

لِمَا تَرْضَى ٱمْنَحَنْ حَتَّىٰ يَكُونَ ٱلْعَبْدُ   إِيجَادِي مَجْلَى ٱلْكَمَالِ بِصِحَّةِ ٱلإِيرَادِ

مَجْذُوبًا إِلَىٰ مَوْلاَيَ قَدْ جَمَّلْتَ خَلْقِي   أَخْلاَقَ عَبْدِكَ مِنْكَ لِلآبَادِ

جَمِّلَنْ   أَدْخِلْ عُبَيْدَكَ فِي مَقُولِ﴿عِبَادِي﴾

حَقَّ ٱلْيَقِينِ ٱجْعَلْهُ نُورًا سَاطِعًا   حَتَّىٰ أَفُوزَ بِرَوْضَةِ ٱلأَفْرَادِ

أَنْتَ ٱلْوَلِيُّ تَوَلَّنِي بِعِنَايَةٍ   وَٱلْخَيْرِ لِلأَشْبَاحِ خَيْرِ ٱلزَّادِ

وَسِّعْ عَطَايَا ٱلْعِلْمِ وَٱلْحُسْنَىٰ ٱلْهُدَىٰ   وَفُّوا ٱلْعُهُودَ وَهَبْهُ لِلْقُصَّادِ

عَمَّمْهُ لِلأَوْلاَدِ وَٱلأَحْبَابِ مَنْ   حَتَّىٰ نَنَالَ بِهَا جَمَالَ جَوَادِ

فِي مِصْرَ فَٱمْنَحْنَا ٱلَّذِي عَوَّدْتَنَا   مَوْلاَيَ أَوْصِلْنَا إِلَى ٱلأَجْدَادِ

يَسِّرْ لَنَا كُلَّ ٱلأُمُورِ بِوُسْعَةٍ   أَعْطِ ٱلْكِرَامَ أَئِمَّةَ ٱلأَمْجَادِ وَٱفْتَحْ كُنُوزَ

وَإِلَيْكَ قَرِّبْنَا بِجَذْبَةِ قَادِرٍ ٱجْمَعْ بِنَا   ٱلْخَيْرِ لِلأَوْلاَدِ

أَهْلَ ٱلصَّفَا بِٱلإِصْطِفَا   وَعَلَىٰ جَمِيعِ ٱلصَّحْبِ وَٱلْوُرَّادِ

وَعَلَى ٱلْحَبِيبِ صَلاَةُ ذَاتِكَ رَبَّنَا

الفصل الخامس

حكمة فتح مصارع التوبة على كثرة العثار

والمعنون بتربية النفوس، وتزكية السرائر لا يحبون أن يقفوا طويلاً عنده هذه العثرات العارضة وهمهم أن يأخذوا بيد الكابى لكى يستطيع النهوض، ويستأنف المسير ويقبل على واجباته بنشاطه القديم، أو أشد رغبة وتهوينهم من هذه السيئات المقترفة، لا لأن هذه السيئات تافهة أو مستحسنة بل ليخلصوا المذنب من آثارها، ويفكوه من أصارها، ويمنعوه من الارتكاس فيها والانكباب عليها. وذاك أخطر ما يتوقع، وأول ما يحاذر الشرع منه. وفى مثل هذه الحالات يساق قول النبي ﴿ﷺ﴾ فيما يحكى عن ربه عز وجل قال: (أذنب عبدي فقال: اللهم اغفر لى ذنبي فقال الله عز وجل: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب.. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لى ذنبي. فقال الله تعالى: أذنب عبدي ذنباً وعلم أن له رباً يغفر الذنب.. ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: يارب اغفر لى!! فقال الله تعالى: أذنب عبدي فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرت لك) [رواه مسلم في كتاب التوبة الحديث /29 وأحمد في الجزء الثاني صفحة 492].

هذا الحديث وأمثاله مما يفتح مصاريع التوبة على كثرة العثار، إن المراد منه حفز الهمم إلى العمل الصالح، والتقصي عن دائرة الجريمة مهما حدث من الإنسان، ورفع أنظار البشر إلى أعلى كلما نكسها الشيطان. وليس المراد منه ما يفهمه سفهاء العامة من تحقير الجرائم، وتهوين السيئات، وإغراء العصاة بالجرأة على المخالفات، واستباحة الحرمات، فهذا المعنى نقض لحقيقة الرسالة الهادية، وتجاهل وقح لآلاف الأحاديث المرهبة عن ارتكاب الذنوب. والتفريط في الأعمال الصالحة بناء عن فهم معوج لهذه

الأحاديث هو ضلال مبين!

وليست الخطايا كلها من هذا القبيل، ولا الذين يقعون فيها جميعاً من هذا الصنف.

الفصل السادس

رباط العاصي بالإيمان واه

هناك حالات من النزق والسفاهة تغوي ذويها بارتكاب الدنايا. وقد لا ينزعون منها على عجل. على أن الإيمان في نفوس هؤلاء يعاني -لا ريب- أزمات عنيفة، وبقاؤه أو انتهاؤه مرهون بمدى ما يصل إليه العاصي من بعد عن الله، واستمراء للخطايا. ومهما عصى المسلم فهو بين توبة سريعة تطهره، أو توبة مضمرة يستنيم إليها، ويرتبط بالإسلام على أساسها. ومصائر أولئك الذين يتدنسون بالمعاصي، ويرجئون المتاب منها - مع الإحساس بالخزي وتوقع العقاب – مجهولة؛ لأن إلحاح المعاصي على القلب قد يزهق الإيمان، ويرد المسلم إلى الكفران، كما يلح المرض الخبيث على الجسم، فينزع منه الروح ويتركه جثة بالية. وأياً ما كان الأمر، فإن رباط العاصي بالإيمان واه.

الفصل السابع

الإيمان في العاصي باق إلا يوم يقترف الجريمة مفتخراً

ونستطيع أن نقول: إن الإيمان في العاصي باق، إلا يوم يقترف الجريمة مفتخراً، أو يترك الفريضة مستهزئاً، فإنه يومئذ ينسلخ عن الإسلام، ويحكم بارتداده، وليس يتصور في مؤمن هذا. فإن المؤمن إذ لم يكن ذا عزيمة في الخير، فلن يكون ذا عزيمة في الشر، تجعله يبارز الله بالمعصية، وهو وقح صفيق، وقد بين الله في كتابه أن المعصية التى تقع من الموسومين بالإيمان، إنما تصدر عن جهالة، أي عن طيش وضعف وغلبة وشهوة وضعة همة: ﮋ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﮊ (النساء: 17-18). ﮋ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ (الأنعام: 54-55).

الباب الخامس

النفس والدرس

الفصل الأول

الإنسان يختلف عن الإنسان بحسب النفوس

الإنسان من حيث هو إنسان، قابل لما يزاوله من صناعات أو فنون أو علوم تتعلق بالأحكام الشرعية، أو بتربية النفوس، وسياسة المجتمعات، وغيرها من العلوم، ولكن الإنسان يختلف عن الإنسان بحسب النفوس.

فكم من محصل نال من العلوم ما لو قسم على كثيرين من الناس لوسعهم، وهو شر على المسلمين من الشيطان، وأضر عليهم من الوحش؛ ذلك لأن نفسه خبيثة، من أكثف الجواهر النفسانية.

وكم من إنسان تحصل على قليل من الضروري، ولكنه فوق الملك الروحاني قدراً، بل وأنفع للمجتمع من الشمس المشرقة على الناس ضحوة؛ ذلك لأن نفسه من أصفى جواهر النفوس، لذلك كان أهل الإيمان لا ينظرون إلى علم الرجل وماله وقوته وعافيته، بل ينظرون إلى أعماله، ورعايته للعلم الذي تعلمه، وخشيته من الله تعالى، ولو أن الدروس والعلوم ترفع قدر الرجل عند الله تعالى، لكان أرفع الناس إبليس، وإذا أراد الله سعادة الأمم، شرح صدور أهل النفوس الطيبة للعلم، فجمع الله لهم بين الجمالين: جمال النفس، وجمال الدرس، ورجل واحد صاغ الله نفسه من أصفى جواهر النفوس، وعلمه العلم النافع، أنفع للمسلمين من الماء الجاري، ومن الهواء، لذلك كان أشد الناس عداوة للرسل أكابر مجرمي الأمم من علماء السوء، فمنهم الذين حرفوا كلام الله تعالى عن مواضعه.

الفصل الثاني

جواهر النفوس

لا تنظروا إلى ما حصلوا من الدروس، ولكن انظر إلى جواهر النفوس، فإن الأمطار إذا هطلت على الأرض السبخة النتنة أفسدت الماء، وإذا نزلت على الأرض الخصبة. اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فكذلك العلم، فنحن أحوج إلى تربية النفوس قبل الدروس، وإلى تهذيب الأخلاق بمحو الشقاق، وكيف لا؟ وإنا نرى في زماننا هذا أكثر من يحصلون العلم، يسارعون إلى تحصيل مالا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة، ويتقربون إلى من لا خلاق لهم بما هو غريب، فينبشون القبور ليخرجوا منها أباطيل اليونان، وأضاليل الرومان، وأوهام الفرس، وشعبذة البابليين، ليشغلوا المجتمع عما كلفهم الله، ويوقعوا الناس في الشكوك والريب، وما أولئك بالعلماء.

الفصل الثالث

قيمة الإنسان ما يحسنه

ليس العالم من فقه لسانه، وجهل قلبه، فإن العلم ليس هو إعراب اللسان، إنما هو إعراب القلب، ودلائل إعراب القلب إصابة الحق عند الشبهات، والقيام لله عند الشدائد، ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين، وليس كل عالم يكون قواماً لله، إلا إذا كانت نفسه من أنفس جواهر النفوس ژ ۇ ۆ ۈو ژ (ص: 24). ولا يخلو كل زمان من وجود رجال، منحهم الله تعالى اليقين الحق، الذي به لا تأخذهم في الله لومة لائم، وكل الصحابة –رضوان الله عليهم– مكنهم الله في هذا المقام العلي، وأكثر التابعين، ومن بعدهم، ولكن انفرد منهم رجال بلغوا المقام الأعلى، ومن قرأ تراجم الصحابة مثل سيدنا بلال، وصهيب، وسيدنا سلمان الفارسي، وأبو رافع، وهم من الموالي يعلم مقدار جواهر نفوسهم فكيف بسادات العرب، وأئمة بنى هاشم وقريش من الصحابة، وإنا في عصرنا هذا لنرى رجالاً حصلوا الدروس، ولم يمنحوا النفوس، يسعون في الأرض فساداً بدروسهم، فتراهم أتباع كل ناعق، وخدمة كل ذى سلطان، يفتحون أبواب الشبه، ويجددون أوهام من أضلهم الله وأعماهم، وجمع لهم بين عمى البصيرة والبصر، وهم علماء الدنيا، الجهلاء بالآخرة، وهم كثير الآن، ينشرون فلسفة اليونان، التى هي نتيجة ظلمة الكفر بالله، وكيف لا؟ والإنسان مهما كمل عقله، وصح جسمه، لا يعلم ما وراء الجدار، فكيف يعلم الغيب المصون بالحيرة والجنون؟ يفتح الرجل منهم القبور، لينشر الشرور ولو أنه قرأ القرآن متدبراً، وكلام رسول الله معتبراً، واطلع على حكم أئمة المسلمين، وأهل التقوى منهم، لميز بين الخبيث والطيب. وإنا– والحمد لله– لا تغرنا أساطيرهم، وقد أغنانا الله تعالى بكتابه المجيد، ويا ليت هؤلاء القوم وقفوا عند ما اختلقه أهل الكفر بالله. ولكنهم يحبذون آراء أهل السلطة والقوة ولو كان فيها محو الحق وأهله، ولولا إنا نكره ذكر أمثال هؤلاء، لسودنا

الصحف بأقوالهم، ولو نظرنا إلى من منَّ الله بهم على المجتمع في هذا الزمان، لتحققنا بعظيم نعمة الله علينا، ولا أبعد بك- أيها المطالع- فإنك ترى بين ظهرانينا رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقاموا لله، ولرسوله، وللأوطان، بعزيمة وإخلاص.

الفصل الرابع

تداركوا ما فات بالرجوع إلى الحق وأهله

نذكر الذين نبغوا في غير العلوم الدينية، ممن ينتسبون إلى العلم وأهله، أن يتداركوا ما فات، بالرجوع إلى الحق وأهله، والعمل بما كان عليه السلف الصالح، حتى يكونوا نوراً الجماعة المسلمين، فيقوموا لله كما قام إخوانهم، وليحذروا سرعة انتقام القهار سبحانه وتعالى: ژ ﮪ ﮫ ے ۓ ۓ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ژ (الرعد: 11). وقال تعالى: ژ □ □ □ □ □ □ بم بى بي □ژ (الأنعام: 44). وليراقبوا الله فيما خولهم من العلم والشهرة، وليجاهدوا أنفسهم في ذات الله تعالى، حتى ينالوا شفاعة رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوم لا ينفع مال ولا بنون، وليتدبروا قوله تعالى: ژ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉې ژ (فاطر: 28).

وكيف لا ؟ وسقطة الرجل منهم زلة للمجتمع، لأن العالم الإسلامي ينظر إليهم نظر التقليد قال ﴿ﷺ﴾ : (من أحب قومًا حشر معهم) [رواه مسلم في كتاب التوبة الحديث 29، وأحمد في الجزء الثاني صفحة 492]. وحب أهل الكفر بالله وموالاتهم برهان على سخط الله وغضبه، للجهلاء المسارعين فيهم عذر وما عذر العلماء؟ حفظنا الله وإياهم من الفتن المضلة، والله تعالى يقول: ژ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ژ (الممتحنة: 1).

على أنني قدمت لك أن المعتبر النفس لا الدرس، ولكن النصيحة من الإيمان، وإني أنصح إخوتي المسلمين أن يمقتوا كل عالم يعمل بغير علمه، ليعلمه الناس، وقد أمرنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن نذكر الفاجر بما فيه ليحذره الناس. أيقظ الله قلوب العلماء الغافلين عن الآخرة، وجعلهم أنصارًا لله ولرسوله ﴿ﷺ﴾ ولجماعة المسلمين. إنه على كل شيء قدير.

الفصل الخامس

تزكية النفوس

تفاوتت النفوس، وتباينت أنواعها، وفاقت الحصر كثرة، وسلسلة تربيتها من النفس الجمادية، إلى النفس الملكية، إلى ما فوق ذلك من عوالم الروحانيات العاليات، حتى لا تكاد ترى ذرة من ذرات الوجود، من أعلاه إلى أسفله وما بين ذلك إلا وفيها نفس حية، خلقت لحكمة، فلم تخل البحار من أنواع الحيوانات، بل ولا القفار ولا الغابات، ولا طبقات الأرض، ولا مستوقد النار ولا الهواء وبقدر تلك الأنواع أنواع الإنسان. فالنفوس الإنسانية مختلفة بقدر اختلاف كل العالم فلا تحب أن ترى نفساً إبليسية أو أي نوع من أنواع نفوس الحيوانات في الإنسان إلا وجدته. فالإنسان أعجب العجب، ما دامت نفسه لم تزك، فهو كالسبع افتراساً، وكالثعلب خديعة، وكالثعبان مضرة، وكالشيطان إفساداً، وكالثور عملاً، وكالجمل حملاً وصبراً، وكالشمس نوراً، وكالملائكة بياناً، بل وهو مظهر لأنواع الجمال الإلهي من الحلم والعلم والكرم والعطف والود أو لأنواع الجلال من القهر والانتقام والبطش وتزكية النفس طهارتها من مقتضيات تلك الأنواع، ليكون الإنسان وسطاً، يعمل أعماله كلها مراقباً الله تعالى، لا كما تعمل الحيوانات، فيأكل ليعيش، قائماً بما عليه من حقوق العبادة، شاكراً الله على توفيقه وعنايته، ويغضب لله غيرة للحق، لا كما تغضب الحيوانات، ويحصل العلم ليصل به تقرباً إلى المعلوم –سبحانه– حتى تصدر كل أعماله عن حسن النية، وإخلاص الطوية، ليكون حاضراً مع الله دائماً. ووسائل تزكية النفوس المحافظة على الأحكام الشرعية أدباً لله تعالى، وأتباعاً لرسوله ﴿ﷺ﴾ ثم تحصيل العلم النافع، من فهم حكمة أحكام الله تعالى، وفهم آياته من كل شيء، حتى تعتاد النفس على العبرة والفكر، وينشط الجسم للقيام بمحاب الله ومراضيه، ثم يلحظ معاني أسماء الله تعالى، مشاهداً صفاته العلية، مشرقة أنوارها على العالم كله، فيرى قادراً قوياً يعصى ويخالف

من ذليل ضعيف، فيعطي سبحانه ويصبر، ويحلم، ثم يتوب عليه، ويغفر له، ويبدل سيئاته بحسنات، فيعشق تلك الصفات، ويستحي أن يعامل عباده بغير صفاته – سبحانه– ثم تتضح له الحقائق، فيعلم أن العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات التى يحبها الله تعالى، هي ما كان عليه رسول الله ﴿ﷺ﴾ فيسارع إلى التشبه به ليكون محبوباً لله، فائزاً برضوانه الأكبر، ويكون ناجياً يوم القيامة، ثم يكشف له الحجاب عن سر بدئه ونهايته، وغيب تطوره من عدم إلى وجوده، ومن ماء مهين إلى أن يصير بالغا رشده، فيذوق حلاوة التوحيد، ويشرب من طهور التنزيه والتفريد. لديها تزكو نفسه قال الله تعالى: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﮊ (المؤمنون: 1). ومن بلغ تلك الدرجة، كان صورة كاملة لرسول الله، يسعد به العالم أجمع؛ لأنه محل نظر الله. والإنسان الذي لم يزك نفسه بل دساها فكان في التفرقة والفساد كالشيطان، وفى المضرة كالوحوش، وفى الشهوة كالبهائم، فهو أضر على المسلمين من الشياطين المفسدة، ومن الوحوش الكاسرة، ومن البهائم الضارة وشتان بين من ظاهره إنسان وحقيقته شيطان،ومن ظاهره إنسان وحقيقته روح ملكية، طاهرة زكية، ينتفع العالم أجمع بعلمه وعمله، وحاله وماله؛ لأنه يضيء، لأهل السماوات كما تضيء الشمس لأهل الأرض.

الفصل السادس

سعادة الأمة بمن زكت نفوسهم

نعم. سعادة الأمة بمن زكت نفوسهم، لا بمن بخسوها، واستخدموها لنيل الرياسات، وتحصيل الفانيات. وإن الأمة لفي حاجة إلى من زكت نفسه أكثر من احتياجها إلى من قوي عقله، فاخترع وابتدع، ورقى وارتفع، وكم هلكت أمم بانقيادها لجريء، قوي القلب، محب للشهوة والسيادة، فانقادت له مسارعة إلى نصرته، فشغلها بما لا يعنيها، وجعلها شيعاً وأحزاباً، فخسرت التعاون بين أفرادها، وحرمت الإقبال على ربها، وفقدت الاتحاد الذي به الظفر بالقصود كلها. كل ذلك لاقتدائها بمن لم تزك نفسه ولا يخفى على أهل العقلل من زكت نفسه؛ لأن كمال تزكية النفوس ينتج محبة الله تعالى، والمسارعة إلى عمل الخير، وتحصيل الخير لكل المسلمين، والخشية من الله تعالى، والرحمة بكل ذي كبد رطبة، وإيثار المسلمين على نفسه، وبغض ما يفنى مما يعاقب عليه يوم القيامة، وحب ما يبقى مما ينال به الخير الحقيقي. وكم من ظاهر مشهور بين العالم، وهو يهوي بهم في الدرك الأسفل من النار، وكم من باطن مستور، به نجاة العالم أجمع في الدنيا والآخرة.

وأساس السعادة في الدنيا والآخرة الأخلاق، فالعمل بالعلم. ومتى فقدت الأمة الأخلاق الفاضلة، صارت كالبهائم السافلة، وذلت للظلمة الفاجرين، والخسرة الكافرين. قال الله تعالى مثنياً على من زكت نفوسهم ژ ڎ ڎ ڈ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ژ (الحج: 41). وقال سبحانه وتعالى: ژ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژڑژ (النور: 55).

وإنا والحمد لله إنما سعدنا أولاً بما تفضل الله به علينا من تزكية نفوسنا، وبالعمل بما جاءنا به رسول الله ﷺ وإن هذا المجد والملك العظيم، إنما نناله بالرجوع إلى

ما كان عليه سلفنا الصالح، إقتداء برسول الله ﴿ﷺ﴾ وهذا الخير إنما يتحقق بالبحث عمن زكت نفوسهم، وجملهم الله بالعلم النافع، والعمل المقبول، فنأتم بهم، ونجاهد أنفسنا الجهاد الأكبر، حتى تزكو، فنغار لله غيرة يكون بها معنا ولنا.

ولديها يتحقق قوله : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ)[1]

وقد ظهر سر هذا الحديث في هذا الزمان، فإن الإسلام بدأ برسول الله ﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾ منفرداً بين جهالة الجاهلين وظلم الكافرين وقوة سلطان اليهود والنصارى، فأظهره الله وأيده، ونشر دينه بقوته سبحانه وتأييده، وقد صرنا الآن والقوة في يد أعدائنا، فجاسوا خلال ديارنا، وطعنوا في ديننا، وأصبحنا لا نجد على الحق نصيراً، فصرنا غرباء، فطوبى لنا في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فبنصرة الله لنا، وإعلاء كلمته على يدنا بمعونته، واجتماعنا بعد التفرقة، والائتلاف بعد الاختلاف، والغيرة لله بعد الخوف من الخلق.

(1) [رواه مسلم في كتاب الإيمان الحديث 32، والترمذي في كتاب الإيمان الباب 13، وابن ماجة في كتاب الفتن الباب 15، والدارمى في كتاب الرقاق الباب 42 (فى الترجمة) وأحمد فى الجزء الأول صفحة 184، 398، والجزء الثانى صفحة 177، 222، 389، والجزء الرابع صفحة 73].

الفصل السابع

العلم والمال

إنما الزهد أن تعمل في الدنيا للآخرة، وأن تجمع المال من وجهه الشرعية، لتكتسب به رضوان الله، ودعاء الفقراء.

والزهد إيثار الحق على نفسك في كل شيء، وإن الناس قد جهلوا كيف ينتفعون بالعلم وبالمال، فاطلب العلم لتعمل، واطلب المال لتنفع غيرك، فتنتفع في الدنيا والآخرة.

وأزهد الناس بعد رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ خليفته أبو بكر -رضي الله عنه- وكان يسافر إلى الشام في التجارة، فيغيب عن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ الشهور الطوال، ثم سيدنا عثمان بن عفان، وهو الذي جهز جيش العسرة بعشرات الألوف من الدنانير. فاحرص على مالك، وسارع في تنميته، لتكون كنزاً من كنوز الله تعالى لإخوتك المسلمين، واحفظ أنفاسك، فابخل بها أن تصرفها في غير طلب العلم، والعمل به، لتكون أسعد الناس يوم القيامة.

الفصل الثامن

العلم يكشف جوهر النفس

العلم والعافية والمال ونفوذ الكلمة، تظهر حقيقة جوهر النفس، وزاد بعضهم على تلك الأنواع الخمرة، وأقواها في التأثير على كشف حقائق النفوس العلم، فإذا كانت النفس من النفوس الروحانية النورانية، وتكملت بالعلوم، أشرقت أنوارها، فعمت العالم نفعاً، وإذا كانت من أخس جواهر النفوس وأرداها، وحصلت العلوم، كانت آلة لانتشار الرذائل، وإفساد العقائد والأخلاق. وفوق العلم في هذا الشهود، ولا تعجب –أيها المطالع– فإنك تعلم حقيقة نفس إبليس، وما كان عليه من العلم، والكشف، والقرب، والولاية، كان رئيس خزنة الجنة، وملكاً متصرفاً في سماء الدنيا والأرض، وطاووسا للملائكة، قرب قرباً حتى تكلم مع ربه، وتحقق أنه نفع الرب، وقام بأعمال لم تقم بها الملائكة، فكان العلم والشهود مع النفس الخبيثة سببين للعن والطرد، أنظر إلى النفس وكمالاتها، لا إلى العلم، والنبوغ فيه، فكم من عالم هو أضر على المجتمع الإسلامي من الشيطان، وكم من ممنوح الكشف نازع الربوبية وادعاها، فكان العلم والكشف لرداءة جوهر نفسه موجبين لبعده وطرده، قال تعالى: ژ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ژ (الأعراف: 175). من هو العالم حقاً؟ هو من يخشى الله تعالى ويعظمه، من أن يرتكب ما يغضب الله تعالى فيكون مهيناً لله بمخالفة حكمه، العالم من عرف نفسه، وعرف ربه، فعظمت عليه نفسه من تذل لغير الله، أو تخالف حكم الله، وعالم يتهاون بحقوق الله تعالى، ويتساهل فيما أوجبه عليه، ويذل نفسه لعظيم أو كبير، لنيل فان لا ينفعه، هو أجهل الجاهلين، وإن حصل علوم الأولين والآخرين، فهو كجراب من جلد خنزير حشى مسكاً، فلم يطهر ما في جوفه حقيقته التي هي عين النجاسة. العالم من تصور رسوم المعلوم، فعلم زوال الدنيا وبقاء الآخرة، وتحقق الموت في كل نفس، ففر من الدنيا وهو فيها، وغار لله ولرسوله ﴿**صلى الله عليه**

وآله وسلمﷺ غيرة من عظم عليه إهمال السنة، فلم تأخذه في الله لومة لائم، يقول الجهلاء فلان عالم، وهو عند الله – تعالى– جاهل بعيد؛ لأن العالم من عمل بعلمه، ولا من استعان بالعلم على معصية الله وغضبه، ما للعالم وللدنيا وأهلها، والموت لا يغيب عنه نفساً؟!

الفصل التاسع

أخلاق العلماء

عزة بالله على أهل المعاصي، وهجر في الله لأهل البدع المتساهلين، وتباعد عن الشبه، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وصولة بالحق ولو على عظماء الدنيا، وبيان لما خفي على الناس من أحكام الله، ونصيحة للخاصة والعامة بإخلاص لله، وتأييد لأهل الحق وإن كانوا ضعفاء، وإنكار على أهل الباطل وإن كانوا أقوياء، وزهد في الدنيا وزينتها، وبعد عن الملوك والأمر، والملوك والأمراء أولى أن يقفوا على أبواب العلماء؛ لأن عند العلماء ما الملوك في حاجة إليه، والعلماء أغنياء عما عند الملوك.

والواجب على كل مسلم أن يتبصر في الأمر قبل الحكم، وأن ينزل الناس بقدر تيقظهم لأحكام الله وآدابه، لا بقدر علومهم وجاههم ومالهم، قال رسول الله : (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم، ولمن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم). وكيف نحكم على رجل بالعلم، يهين العلم ومحله، بمخالفة الله، والطمع في الدنيا، والوقوف على أبواب الأمراء؟، قال رسول الله﴿ﷺ﴾ : (ٱلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلأَنْبِيَاءِ) [رواه ابن عدى عن سيدنا على، وابن النجار عن أنس].

والأنبياء لم يتركوا لورثتهم مالا ولا جاهاً ولا ملكاً، وإنما تركوا لهم علماً، ونوراً، وهدى، وحباً في الله، وشوقاً إليه سبحانه، وزهداً في الدنيا، ورغبة فيما عند الله تعالى، فمن فقد هذا الميراث، وادعى أنه عالم، فهو كاذب، ومن حكم له بالعلم فهو أحد الكاذبين، إنما العلم خشية في القلوب من الله تعالى، ومسارعة بالأعضاء إلى محابه ومراضيه، وتنزيه الله تعالى عن أن يكون له نظير ينفع أو يضر، والنظر إلى العالم أجمع بعين ترى أن الجميع مضطرون مفتقرون إلى الله تعالى، ليس فيهم عظيم ولا كبير إلا من عظمهم الله تعالى وأثنى عليهم، ومن لم يجمله العلم بالتقوى فعلمه جهل، والعالم

الذي يعتقد أن الله يراه، وأنه سيقف بين يديه غداً، وأنه ستنكشف الستائر، كيف يغضب الله بمخالفة العلم، وبالعمل بغير مقتضاه؟ يحكم الناس أن فلاناً عالم، وهو أشره من البهائم، وأطمع من النمل، وأحرص من الجاهل، يعظم أهل المال ولو كانوا عصاة، وأهل الجاه ولو كانوا فسقة، ويجل أهل المنزلة ولو كانوا ظلمة، ويحقر الفقراء ولو كانوا أولياء الله تعالى، ويستهين بالمساكين ولو كانوا أتقياء، فهو عزيز على الفقراء، ذليل على غيرهم، هل هذا عالم عند الله، وعند رسوله، وعند العلماء الربانيين؟ لا -والله- فتنبه أيها المغرور قبل هجوم الموت، حيث لا ينفع الندم، واعتقد أن الله تعالى غيور على العلم، فلا تجعله حجة عليك ﮋ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﮊ (الشعراء: 88-89). وبادر قبل الفوات، وخصوصاً إذا نزل نذير الموت.

شَرَابَانِ رَشْفُ مُدَامَةِ ٱلأَخْلاَقِ   وَرَاحُ ٱلصَّفَا مِنْ حَضْرَةِ ٱلْخَلاَّقِ
فَرَاحُ ٱلصَّفَا خَمْرٌ مِنَ ٱلْقُدْسِ نُوِّلَتْ   لِمَنْ شَاهَدُوا ٱلأَنْوَارَ فِي ٱلآفَاقِ فَفَرُّوا
أَحَاطَ بِهِمْ وَجْهٌ عَلِيٌّ مُنَزَّهٌ   إِلَى ٱلْخَلاَّقِ بِٱلأَشْوَاقِ
وَخَمْرَةُ آدَابِ ٱلسُّلُوكِ طَهُورَةٌ أُدِيرَتْ   تُدَارُ بِلاَ مَزْجٍ عَلَى ٱلْعُشَّاقِ مَعَالِمُهُمْ
عَلَيْهِمْ مِنْ لَدَى ٱلْبَدْءِ جُمِّلَتْ   بُشْرَىٰ لِفَرْدٍ رَاقِ
صَفَاهُمْ لَهُ بَدْءًا فَجَمَّلَهُمْ بِمَا بِأَخْلاَقِهِ   بِهِ جُذِبُوا بِٱلذَّوْقِ وَٱلإِشْفَاقِ فَصَارُوا هُمُو
ٱلْعَلْيَا ٱلْكَرِيمَةِ جُمِّلُوا يُقَرِّبْهُمْ وَهْوَ   ٱلأَبْدَالَ بَعْدَ مِحَاقِ
ٱلْقَرِيبُ لأَنَّهُمْ وَأَهْلُ ٱلصَّفَا ٱلْقُدْسِيّ   هُمُو صَفْوَةُ ٱلرَّحْمٰنِ وَٱلرَّزَّاقِ مِنَ ٱلْبَدْءِ
ذَاقُوا مُدَامَةً رَأَوْا وَجْهَهُ يُجْلَىٰ لَهُمْ فِي   نَالُوا ٱلْقُرْبَ لاَ بِفِرَاقِ
نَزَاهَةٍ مُدَامَةُ أَهْلِ ٱلْحُبِّ رُؤْيَةُ وَجْهِ مَنْ   فَفَرُّوا بِهِ شَوْقًا بِغَيْرِ مَرَاقِ تَعَالَىٰ عَنِ
تَجَلَّىٰ لَهُمْ بَدْءًا رَأَوْهُ تَنَزُّلاً   ٱلإِدْرَاكِ بِٱلأَحْدَاقِ
تَرَاءَىٰ لَهُمْ بَدْءاً فَهَامُوا تَأَلُّهًا   رَأَوْهُ بِعَيْنِ ٱلْحَقِّ لاَ ٱلإِحْدَاقِ
فَلَمْ يَأْنَسُوا إِلاَّ بِنُورِ جَمَالِهِ   بِجَاذِبِ وَجْدٍ فِي لَظَى ٱلإِحْرَاقِ
إِلَيْهِ بِهِ فَرُّوا لِنَيْلِ ٱتِّحَادِهِمْ   فَلَمْ تُلْهِهِم نُعْمَاهُ بِٱلإِغْدَاقِ
هُمُو ٱلأُمَنَا ٱلأَبْدَالُ صَفْوَةُ رَبِّنَا   وَأَهْلُ ٱلصَّفَا ٱلْقُدْسِيّ خَيْرُ رِفَاقِ
صَفَاهُمْ لَهُ بَدْءًا فَهَامُوا بِحُبِّهِ   لَقَدْ فَارَقُوا ٱلْمَلَكُوتَ بِٱلإِغْرَاقِ
نَعَمْ أُلِّهُوا بَدْءًا وَفِي ٱلْكَوْنِ وُوجِهُوا   وَغَابُوا بِهِ عَنْهُمْ بِغَيْرِ تَلاَقِ
إِلَى ٱللَّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ قَدْ تَأَلَّهَتْ   فَحَنُّوا إِلَىٰ بَدْءِ ٱلصَّفَا ٱلإِشْرَاقِ بِسَابِقَةِ
وَهَلْ لِي مُرَادٌ بَعْدَ أَنِّي مُرَادُهُ؟! أَتُوقُ   ٱلْحُسْنَىٰ مِنَ ٱلْخَلاَّقِ فَرُوحِيَ سَكْرَىٰ مِنْ
وَنُورُ ٱلْوَجْهِ حَوْلِي يُحِيطُ بِي   رَحِيقٍ دِهَاقِ
وَهَلْ يَصْبِرُ ٱلْمُشْتَاقُ عَنْ وَصْلِ حِبِّهِ   وَلاَ صَبْرَ يَحْلُو لِلْفَتَى ٱلتَّوَّاقِ وَأَنْوَارُهُ

حَنِيـنِي إِلَى ٱلْمَجْلَىٰ وَشَـوْقِي إِلَى ٱلصَّـفَا   تَمْحُـــــو صُـــــوَى ٱلآفَـــــاقِ؟!
رَأَيْـتُ ٱلْجَمِيـلَ ٱلْحَـقَّ بَـدْءًا بِـلاَ خَفًـا   وَمِـــنْ نَشْـــأَتِي شَـــوْقِي وَمِـــنْ مِيثَـــاقِي
سَـــقَانِي طَهُـــورًا أَلَّـــهَ ٱلـــرُّوحَ جَذْبَـــةً   وَفِي عَهْـــدِ يَوْمِ﴿أَلَسْـــتُ﴾كَانَ ٱلسَّـــاقِي
تَأَلَّهْـــتُ مِـــنْ عَهْـــدِي لِنُـــورِ ٱلْبَـــاقِي

الباب السادس

الإرادة والعمل والخلق والتخلق والأخلاق

الفصل الأول

الإرادة والعمل

أولاً: الإرادة تدفع إلى العمل

معلوم أن الإرادة إذا أطلقت إنما يراد بها اختيار ما هو خير في الحقيقة، ومتى تعين المقصد بالاختيار جذب الإنسان بكليته إلى نيل مقصوده، كائناً ما كان، وذلك؛ لأن الإنسان لا يختار مقصداً من المقاصد إلا بعد أن يتحقق أنه له، ويعد الوسائل لنيله، ومتى توفرت تلك الأسباب عظم لديه المقصد، وصغر في عينيه كل ما سواه، من مال وحياة ومنصب وجاه، وهذا أمر بديهي لا يختلف فيه اثنان، ومثاله: أن المسلم إذا تحقق فناء الدنيا وبقاء الآخرة، وأنه يمكنه نيل الدرجات العلا إذا هو اختار الآخرة على الدنيا، صغرت الدنيا في عينه وعظمت الآخرة، فإذا عارضته الدنيا عاداها، وفر منها حتى يبلغ قصده أو يموت دون ذلك، وكم من ملك عظيم انكشفت له الدنيا ففر من الملك الحقير إلى الملك الكبير، بل وكم من غني فر إلى الله من ماله وجاهه وأهله، بعد أن اختاره سبحانه، والإرادة خمرة تنوع الأفكار، وتقرب الآمال، وتسهل على المريد الأعمال، وما هي إلا إرادة تدفع إلى العمل، فينال الأمل، ومتى سكرت النفوس بخمرة الإرادة أبت إلا أن تنال المقصود وزيادة، ومن تصور مقصده بقوة الإرادة هب هبوب الريح العاصفة، باذلاً نفسه ونفائسه لنيل ما اختاره بعد تصور نفعه وخيره، بعد ما يتخيل له أن حياته بغيره شر من الموت.

ثانياً: وسائل الإرادة

تحصيل العلم الذي تتضح به حقائق المقصد والوسيلة، وانكشاف ما غاب عنه

من الخير الحقيقي، والمجد الذي يفوز به بنيل ما أراده، حتى تتمثل له تلك الملاذ والمسرات في فقدها، ويتمثل له ما هو فيه، فيكره الحياة، ويبذلها لتحصيل مراده، قال سيدنا أبو بكر ﷺ لأمير المؤمنين عمر ﷺ (مت تحيى) ومراده والله أعلم بمراده: أي تجرد من حظوظك ومقتضى بشريتك، مسارعة إلى إعلاء كلمة الله وإحياء سنن رسول الله ﴿ﷺ﴾ باذلاً نفسك في نيل رضاء الله ورسوله ﴿ﷺ﴾ تحيي وجيهاً في الدنيا والآخرة، في جوار رسول الله﴿ﷺ﴾ ولا يجمع الإنسان بين نيل مراده وحفظ حياته وماله، اللهم إلا مالا بد منه عند الاضطرار إليه، من طعام وشراب ولباس ونوم، فإنه مما لا يتنزه عنه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وإنا لنرى الدجاجة إذا أرادت حفظ فراخها، تهجم على السبع، وهى أجبن الطيور، وأخوفها من القط؛ ذلك لأنها أرادت اختبار المدافعة عما هو لها، مع أنا نراها منفردة تفر من أضعف حيوان، ولكنها ثبتت ثبوت الشجاع المقدام لنيل قصدها بعد الإرادة، وهذا المقصد ليس مما يليق بالدجاج، بل الإرادة تقهر النفوس على ارتكاب الصعب من الأمور، مع علمها به، فإذا ظهر للقلب نور الحق، فبين له، ما هنالك من المقصد العظيم، اضمحلت الدنيا في عينه.

ثالثًا: كيف ينال المقصد المراد؟

القصود تتفاوت، فمن طلب الله فر ما مما سواه، ومن طلب الآخرة زهد في الدنيا، وفى كل هذه القصود يجب أن تتحد كل الجوارح على نيل المقصد.

رابعاً: طريق نيل الأمة مرادها

الأمة الحية تمثل الجسد الواحد، وكما قررنا أن الجسد لا ينال قصده إلا إذا اتحدت جميع الجوارح على نيله، فإذا أقبل على الله ونازعته بطنه فالتفت إلى نيل شهوتها، التفت عن الله، وإذا طلب الآخرة ونازعته الدنيا بزخرفها والتفت إليها حرم الآخرة.

والأمة هي كالجسد الواحد، متى تبين لها طريق المجد والعز، قام كل فرد من الأفراد

عـاملاً لمجمـوع الأمـة، كعمـل كـل عضـو للجسـد، متحـدين اتحـاد الجـوارح في خدمـة الجسد، فإذا كان هذا المجد والعز لها، واغتصب منها، كان هبوبها أشد من لهيب النار، واتحادهـا أقـوى مـن تماسـك الفـولاز، مـالم تبتـل أفرادهـا بمحبـة الـذات، وتقـديم النفـع الخاص على العام، فإذا عولجت واتحدت، سلكت سبل الحق. والأولى بالأمة أن تختار مرادهـا، عاملة لـه بعد اليقين الحق، بصحة الجسد من الأمراض، واتحاد الأفراد على هـذا المقصـد، والـتحفظ مـن دسـائس العـدة الـذي يسـعى لتفرقتهـا، كمـا يتعـين علـى السـالك في طريـق الله أن يـتحفظ مـن عـدوه الشـيطان، الـذي يريـد تفرقـة الأعضـاء، ومطالبة كل عضو بماله، فيرد السالك عما هو مول وجهه شطره، وللفرد في سلوكه أدويـة يعـالج بهـا نفسـه لتزكـو، وللأمـة أدويـة تعـالج بهـا الأفـراد والجماعـات والله ولي المتقين.

الفصل الثاني

الخلق والتخلق

أولاً: خلق الإنسان مضطراً إلى التعاون

قال العربي:

وَإِنَّمَا ٱلأُمَمُ ٱلأَخْلاَقُ مَا بَقِيَتْ   فَإِنْ هُمُوا ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ ذَهَبُوا

خلق الله كل الأنواع، ويسر لنا ضرورياتها وكمالياتها، من غير احتياج إلى مساعد، فالفرد من أي نوع من أنواع الخلق، يسر له مالا بدله منه وأكثر، من غير أن يحتاج لغيره من أفراد نوعه، إلا الإنسان، فإن الله خلقه مضطراً إلى التعاون، حتى في ضرورياته التى لا حياة له بدونها كالخبز فلابد من المجتمع الذي يعيش فيه، آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوته. وهذا المجتمع لا بد له من رابطة قوية، تجعله كالجسد الواحد، وتلك الروابط كثيرة الأنواع منها تبادل المنفعة، وتوحيد اللغة، وانتشار العدل بينهم، حتى تحصل المساواة والحرية ورابطة تلك الروابط كلها، التى بها يكون الجسد حياً صحيحاً وأعضاؤه قوية، عاملة ما يجب عليها، هو الدين؛ لأن الدين يجعل الأمة متحدة علي عقيدة واحدة، وعبادة حقة، وأخلاق حسنة، ومعاملة جميلة، ومسارعة كل فرد منها إلى التفضل على الغير، لينال أحسن الجزاء يوم القيامة، ولا سبيل إلى نيل الخير الحقيقي إلا بالخلق الحسن.

ثانياً: الخلق

هو أثر تزكية النفس، والرحمة، والعفة، والشجاعة، والكرم، والصبر، والصدق، والشكر، وقوة الإيمان بالله ورسوله، والغيرة لكتاب الله، ولسنة رسول﴿**صلى الله**

عليه وآله وسلم﴾ الله والعفو، والسماح، وغيرها من مكارم الأخلاق.

ثالثاً: تزكية النفس

معلوم أن النفس قد تطلق ويراد بها الناطقة أو الحيوانية. وقد ورد في القرآن الكريم ذكر النفس بالثناء والمدح، وبالذم والتشنيع، فمدحها بقوله: ﮋ ﭬ ﭭ ﭮ ﮊ (الفجر: 27). وبقوله: ﮋ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑﮊ (القيامة: 1-2). وشنع عليها بقوله: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﮊ (يوسف: 53). وبقوله تعالى: ﮋ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﮊ (الأنعام: 112). وبقولـه: ﮋ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮊ (الناس: 4-6). وكل تلك النفوس قوى تكون منها الإنسان، ففيه النفس المطمئنة، وهي النفخة من روح الله تعالى، وفيه النفس الشيطانية، وهي النار التي هي جزء منه، وفيه الحيوانية، وهي الدم والتزكية مجاهدة تلك القوى، حتى تقتدي بالنفس الناطقة الروحانية، ولا تكون المجاهدة حقة، وتنتج هذا الخير، إلا باتباع سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ومن خالف سنة رسول الله وقع في الطمع والحرص والحسد، وهذه البلايا أساس أمراض المجتمع. والذين جملهم الله بالأخلاق الفاضلة حتى بلغوا مقام الفوز بمعية رسول الله ﴿ﷺ﴾ التى ذكرها الله في آخر الفتح، أسعدهم، ومكن لهم في الأرض بالحق، وجمعهم على الحق، وأذل لهم الأمم، وأسعدهم في الآخرة، فأحلهم مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهم السعداء في الدنيا والآخرة، تخلقوا بأخلاق الله، وعملوا بسنة رسول الله، فأحبهم الله وأيدهم، ودافع عنهم عدوهم، وطهرهم من فساد الأخلاق، ونفعهم ونفع بهم.

رابعاً: التخلق

التخلق سببه اليقظة بعد طول الغفلة. ولليقظة أسباب، منها البلايا تصيب المجتمع، بسبب مخالفة السنة، فيسلط عليه عدواً من غير دينه، يسلب منهم ملكهم وآدابهم،

حتى يصبحوا أذلاء بعد العز، ضعفاء بعد القوة، فتوقظهم الشدائد. ومنها أن يقيم الله بينهم مرشداً أحيي الله قلبه، وأطلق بالحكمة لسانه، ونشط للأعمال الصالحات جسمه، وألقى عليه محبة منه، فذكرهم بما ناله سلفهم الصالح، بالتمسك بالكتاب والسنة، ونصحهم بالحكمة والموعظة الحسنة والذكرى تنفع المؤمنين. ومن أسباب اليقظة في مثل زماننا هذا، تأييد الله بنصره جماعة من المسلمين، تأييداً تقوى به قلوب بقية المسلمين، فيجاهد المسلمون جميعاً أنفسهم أن تعود إلى الحق، وأن تعتصم بكتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ فيحن كل مسلم إلى التوبة والإنابة، أخذاً بالعزائم، وعملاً بما كان عليه السلف الصالح، ولديها يتكون الجسد الإسلامي، ويظهر له أسباب تلك الأمراض، فيكره أسباب الأمراض بقدر ما يكره المرض. فالتخلق تكلف النفس أن تتجرد من مقتضيات عناصرها، التى تدعو إلى مخالفة الشريعة الغراء، طمعاً فيما يزول، أو حرصاً على ما لا ينفع، أو توددا لمن لعنهم الله وغضب عليهم، أو موالاة لأهل الكفر بالله، أو عقوقاً للوالدين، أو قطيعة للرحم، أو أذية للوالدين. ومتى زكت النفس بالسجية أو بالتكلف، كان الله معنا، ولنا سبحانه وتحققنا بقوله تعالى: ﮋ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ (النور: 55).

الفصل الثالث: الأخلاق

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون. ألا أخبركم بأبغضكم إليَّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الثرثارون المتفيهقون الذين لا يألفون ولا يؤلفون. ألا أخبركم بشر من ذلكم؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال: من ضرب عبده ومنع رفده وأكل وحده) [رواه

البخاري في كتاب فضائل الصحابة الباب 27]. الحديث جمع لنا هذا الحديث الشريف سعادة الدنيا والآخرة، فإن المحبوب لرسول الله محبوب للخلق أجمعين، فبين أن أعلى درجة في الحب لديه، لا ينالها إلا من تخلق بأخلاق الله تعالى؛ لأن أحاسن الأخلاق مواهب من الله –تعالى- يختص بها من سبقت لهم من الله الحسنى، وأن القربات –وإن كثرت- لا تذكر في جانب الأخلاق الفاضلة بشيء، وإذا رأيت رجلاً حسن الأخلاق، مرتكباً معاصي الجوارح، السعادة، لأنه تخلق بخلق من أخلاق الله، كما قال ﴿ﷺ﴾: (إن لله تسعة وتسعين خلقاً فمن تخلق بخلق منها دخل الجنة. فقال أبو بكر: وهل في يا رسول الله خلق منها؟ قال فيك يا أبا بكر جميعها [رواه البخاري في كتاب الدعوات الباب 69، ومسلم في كتاب الذكر الحديث 5، 6 وابن ماجة في كتاب الدعاء الباب10]. إذا لا يغتر بعمل الجوارح مع سوء الخلق إلا إبليس، فقد عبد الله سبعين ألف سنة، لكن أبت أخلاقه إلا أن يلعن ويطرد، لعنة الله عليه، ومن نظر بين فكرته إلى معصية آدم-- ومعصية إبليس، ومعصية بلعام بن باعورا، ومعصية آصف بن رخيا، ومعصية أخوة يوسف عليه وعليهم السلام، يعلم أن المعاصي الأخلاقية توجب غضب الله وسخطه، كمعصية إبليس، وبلعام بن باعورا وغيرها من المعاصي التي أسبابها طمع، كمعصية آدم، وأخوة يوسف، أو أمل، كمعصية آصف بن برخيا لا تضر؛ لأنها ليست أخلاقية، فإن آدم- –طمع البقاء في حوار الله، حباً له سبحانه، وأخوة يوسف طمعوا في وراثة الخليل، فإنهم رأو والدهم يختص يوسف دونهم، وآصف بن برخيا كان له أمل في مغفرة الله ورحمته، فكان عند ظنه بربه، ولم تكن معاصيه أخلاقية، لم يقل ﴿ﷺ﴾ أحبكم إليَّ وأقربكم منى مجالس المجاهدون، ولا الذاكرون، ولكن حصر هذين النعمتين في أهل الأخلاق والإنسان، كما أنه صالح للتأقلم، فيعيش في كل إقليم، فكذلك هو صالح لتنوع الأخلاق إن يسر الله له ذلك، وأعانه بصحبة عالم رباني، ليزكي نفسه، ثم بين يبين ﴿ﷺ﴾

الطرف الأسفل من الرزيلة، محصوراً في الأخلاق أيضاً، بقوله: أبغضكم إليَّ وأبعدكم منى مجالس بقوله ﴿ﷺ﴾ الثرثارون، أي الذين يكثرون الكلام في الجدل، والعناد، والمتفيهقون، توضيحاً لقوله﴿ﷺ﴾: (الثرثارون) لأن العربي يقول:

جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم

فيقال: عين ثرة، أى كثيرة الرشح، أي الماء، ويقال فهق الغدير إذا سال الماء من على جوانبه، وقوله ﴿ﷺ﴾: الذين لا يألفون ولا يؤلفون، وهم الأشرار، الذين يداريهم الناس خوفاً من شرورهم، فعلى الحريص على نيل السعادتين، أن يجمل نفسه بالأخلاق الفاضلة، ليحبه الله ورسوله والناس، ومن أمكنه أن ينال محبة الله ورسوله والناس بشيء يسير، من كلمة حسنة، وتبسيمة يسر بها أخاه، وغض بصر عن عيوب الناس، وعفو عن الإساءة، وخسر تلك النعم، فليبك على نفسه. وإنما هي أخلاق الله تعالى التى بها الفوز بالحسنى، أو أخلاق إبليس الذي بها الخلود في الدرك الأسفل من النار. والله أسأل أن يحفظنا من التشبه بإبليس رأس الغواة، إنه مجيب الدعاء.

الباب السابع

طرق السلامة من عداوة النفس

الفصل الأول

أعدى الأعداء هي النفس

قال رسول الله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾: (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك) [رواه البيهقي في الزهد وله شاهد من حديث أنس]. ولكن جهل الإنسان أعدى عدوه فعادى أحب الناس إليه.

أولاً: من هو أحب الناس إلينا؟

أحب الناس إلينا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ ومن قام فينا مقامه؛ لأن رسول الله أحبنا لنا، فكان بنا رءوفاً رحيماً، يعالج أمراض أخلاقنا بكل أنواع الأدوية النافعة، لنتحقق بأخلاق الله تعالى، ويجذبنا ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ إليه خوفاً علينا من أن نسقط في النار، فالسعيد من سمع وأطاع قال الله تعالى:(ﮋ ۋ ۇ ۆ ۈ ۉ ۉ ې ې ى ى ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﮊ (النساء: 65).

ومن أحبك لك، شدد عليك، وأزعجك، وآلمك ليقوم أخلاقك، وليزكى نفسك، وليجعلك قواماً لله، شهيداً بالحق ولو على نفسك، لتكون معه في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ومن أحبك له، استسلم لك، وتملق، وأعانك على الخير، أو على الشر، ولذلك فرسول الله يأمرنا وينهانا، ويشدد علينا، ويلزمنا بمجاهدة أنفسنا، ولزوم الاستقامة، مهما كان في ذلك من العناء والمشقة، لأنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

ومن أقامهم الله فينا مقامه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ هم الأئمة الهداة الراشدون المرشدون، الذين

جملهم الله بأخلاقه، وأدبهم بآداب نبيه، وقد وصفهم الله تعالى في آخر الفتح، وما أيسر الوصول على من عرف نفسه فعرف ربه، وتذكر النشأة الأولى إلى الآخرة، ففر إلى النعيم الباقي، وحقاً فإن النفس هي أعدى الأعداء.

ثانيًا: بيان أعمال النفس

ولست في مقام تعريف النفس، وبيان حقيقتها، ولكني أعرفها لك بأعمالها، فهي كالشيطان الرجيم، الذي ترى عمله ولا ترى حقيقته، فإن كل إنسان يعمل شرًا يلعن الشيطان، والنفس في الحقيقة شر على الإنسان من الشيطان، فإنه –عليه لعنة الله– ما ترك نبياً ولا صديقاً إلا ووسوس إليه فيطفيء الله ناره بثلج اليقين الحق، قال الله تعالى: ﮋ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮊ (الإسراء: 65). فالشيطان إنما يتسلط على أهل النفوس الأمارة بالسوء، فهو كالنار التى إذا ألقيتها في ماء أطفأها، وإذا ألقيتها في سائل قابل للالتهاب استعرت، هذا هو ميزان النفوس، فإذا رأيت الرجل يفتح أبواب الفتن، ويؤجج نارها، فهو مجانس للشيطان، وإذا رأيته يتباعد عن الفتن ويدفع السيئة بالحسنة، فاعلم أنه مجالس للملائكة الأطهار، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

قال العربي:

عَنِ ٱلْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينُهُ فَكُلُّ قَرِينٍ بِٱلْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

وقال غيره:

فَقُلْتُ أَخِي قَالُوا أَخٌ مِنْ قَرَابَةٍ فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلشُّكُولُ أَقَارِبُ

فما على مريد السعادة إلا أن يبحث عن أخ تقي ورع، عالم بالله وبأيامه وبحكمة أحكامه، لينتفع بصحبته في الدنيا والآخرة، وليجاهد نفسه ليكون كالظل يتحرك بحركته.

الفصل الثاني:

البطن واللسان والذكر أعدى الأعداء في النفس

خالف عدوك في نفسك تسلم من الأسقام. وخالف عدوك الخارج عنك تعش في سلام. أعدى عدوك في نفسك : البطن، واللسان، والذكر

أولاً: عداوة البطن:

أما عداوة البطن فلأنها تشتهى ما يضر ولا ينفع، ومتى يسرت لها قصدها أنتجت ضررين: الأول من الجسم، والثاني تحكم المادة، فيضطر الإنسان إلى ما اعتاد عليه فإذا تعسر عليه من المباح الطيب، تحصل عليه من الحرام، فيغضب الله والناس، ويكون بين ضرر المرض والمقت، إحذر هذا العدو ما استطعت؛ لتعيش سالماً من عضال الداء، ومن شديد البلاء، قال رسول الله﴿ﷺ﴾: (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه)[1] وقال رسول الله﴿ﷺ﴾: (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء)[2] أهل الجهالة يحبون بطونهم، ويعتقدون أنها سبب في عافيتهم، وفي لذتهم، فيعيشون ليأكلوا، وأهل العلم يكرهون بطونهم، لأنها سبب في أمراضهم، وفي معصية الله تعالى، فيأكلوا ليعيشوا، وإن أكثر المحرمات في الشريعة المطهرة، يكاد يحصر في البطن، فإن الله – سبحانه وتعالى– حرم مال اليتيم، والربا، والمسروق، ولحم الخنزير، والخمرة، وما ذبح على النصب، وما أهل به لغير الله، والمنخنقة، إلا ما ذكينا، وغير ذلك، وكله يتعلق بالبطن، ولم يحرم الله محرماً إلا وقد علم أنه مضر مهلك؛ لأن الله أرحم الراحمين، ولأنه سبحانه غني عن الأشياء، ومن عادى بطنه أطاعته الجوارح كلها، لأنها جنود للبطن،

---

(1) [رواه الترمذي في كتاب الزهد الباب 47، وابن ماجة في كتاب الأطعمة الباب 50، وأحمد في الجزء الرابع صفحة 132].

(2) [رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً، وذكره الدارقطني في العلل، وابن السني وأبو نعيم في الطب].

تستمد منها ما به تقوى على معصية الله تعالى، ومضرة عبادة، والسلامة كلها في عداوة البطن، فلا تمكنها منك قال رسول الله ﴿ﷺ﴾: (يكفى ابن آدم لقيمات يقمن بها صلبه) [رواه الترمذي في كتاب الزهد الباب 47، وأحمد في الجزء الرابع صفحة 132].

(الاحتياط من البطن)

عودها ما تقدر عليه فقيراً، وإن كنت في وسعة وبسط من العيش، حتى يدوم لك الغنى عن شرار الخلق، واقهرها بالبعد عن مجالسة كلاب الدنيا عبيد شهواتهم، والزمها صحبة الفقراء؛ لتشعر بعظيم نعم الله عليك، فعليك بمجالستهم لتحتقر أعمالك من البر في جانب أعمالهم، فتكون شاكراً ذاكراً.

الحذر من تمكين العدو

إذا تحققت أن أعدى عدوك بطنك، أعددت العدة لقهرها على ما يحبه الله، وإن طاعتها سبب في معصية الله، وعداوة خلقه، وما من حيوان، ولا إنسان، يعادى غيره إلا بسبب البطن، فإن الخصومات على الأموال والنساء، سببها البطن، طمعاً أو شبعاً، ومتى تسلطت عليها استرحت من جوارحك، والعالم أجمع، وكنت من أولياء الله تعالى، وما فاز أحد إلا بالورع، والورع معراج المقربين إلى الله تعالى.

ثانياً: عداوة اللسان

اللسان فرع البطن، فإذا جاعت البطن حسن اللسان، وكان عاملاً للألفة والمحبة، حتى يحكم من يراه أنه من أولياء الله الصالحين، ومن جاع أربعين يوما تفجرت الحكمة من قلبه على لسانه. اللسان يلقى في هاوية النار من أطاعه، ويرفع إلى مقعد صدق من خالفه؛ لأنه مصدر الكذب والغيبة والنميمة والزور والبهتان، والعداوة والتفرقة، والأيمان الباطلة والخديعة. قال﴿ﷺ﴾ : (وهل يكب الناس في النار على مناخرهم

إلا حصائد ألسنتهم).

إنما يتمكن العدو من الإنسان إذا ظهرت له عوراته، وجهات ضعفه، فقلل من العورات، واستر ما فيك عن غيرك، وعالج ما فيك من الضعف، أو أخفه عن غيرك، تسلم من عدوك، وإنما الإنسان منفرداً كالمملكة، وكل فرد منها ككل عضو من الجسد، فإذا قام رجل من المملكة، فأخبر العدو بعوراتها، وجهات ضعفها، دخل العدو من جهتها، فالواجب على أهل المملكة أن يطهروها من الشريرين، الذين يبيعون الدين والشرف بالعرض الفاني، أو بالأمل الكاذب، كما يجب على الإنسان أن يتعهد أعضاءه بقهرها على ما به سلامة الجسد من الأمراض الجسمانية، أو العيوب الأخلاقية، ليكون عضواً عاملاً لخير نفسه وقومه.

آثار اللسان

إنك ترى الصديقين يعيشان العشرات من السنين، كأنهما روح واحدة في جسمين، وبكلمة واحدة من اللسان، يحصل بينهما الحرب، بل وترى الرجل يعيش العمر الطويل مؤمناً، بكلمة واحدة يكفر، كما أنك ترى العدوين بكلمة واحدة يتحابان، وترى الكافر بعد أرذل العمر بكلمة واحدة يصير مسلماً ولياً.

(إن الرجل ليقول الكلمة من غضب الله يضحك بها القوم لا يلقي لها بالا فيهوي بها في النار سبعين خريفا، وإن الرجل ليقول الكلمة من الخير لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها) [رواه مالك في كتاب ما يكره من الكلام. الحديث 5] أنظر أيها السالك إلى أصغر عضو فيك، إذا أنت حفظته يتولاك الله به، ويرقيك، ويجعلك من أحبابه، ويسخر لك به الملك والملكوت.

احفظ لسانك كما حفظه الله

إن الله تعالى حبس اللسان في حبسين حبس من عظام، وحبس من لحم، لما

يعلمه فيه من الشر، فشدد عليه، ولا تنطق به إلا بعد الروية، قال الشاعر الحكيم:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

والإنسان تحت كلمته، فاحذر أن تكون عبداً لغيرك بوعد أو وعيد قال﴿ﷺ وآله﴾ : (قل الخير وإلا فاسكت).

ثالثاً: عداوة الذكر

عن عبد الله بن مسعودقال رسول الله﴿ﷺ﴾ : (استحيوا من الله حق الحياء). قالوا: وكيف نستحي من الله حق الحياء؟ قال:من حفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، فقد استحيا من الله حق الحياء. [رواه الترمذي في كتاب القيامة الباب 24]. هذا العضو إذا حصنه المسلم، فاستعمله فيما أحله الله له، جعل الله منه أولياءه الأبرار، وأحبابه الأطهار، والعلماء الأخيار، فكان سببا لإعلاء كلمة الله، وإحياء سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾. وإذا تعدى المسلم به حدود الله تعالي، أنتج عمله حقائق شيطانية، ومردة في صور إنسانية، فأفسدوا البلاد، وأضلوا العباد، وعمروا جهنم، وأغضبوا الله ورسوله ﴿ﷺ﴾. هذا العضو الصغير، قد يخلق الله تعالى بسببه أكبر أوليائه، وخير الصديقين من عباده، وقد يكون سبباً في أكبر الشياطين، وأكبر المردة. فليتق الله المسلم في هذا العضو، وليتصور مقدار ما تنتجه تلك الشهوة من غضب الله تعالى، ومضرة المسلمين، والفضيحة يوم القيامة، وليعتقد بأن الله يعجل بالزنا ثلاث مضرات في الدنيا، أولاً: الفقر المدقع، فلا ترى زانياً إلا ويعجل الله له الفقر. والثاني: المرض العضال، لا تجد زانياً إلا ويصاب بمرض تبقى مضرته في نسله دائماً. والثالث: الذل، فما من زان إلا وينكشف عنه الستر، فيذل ويخزى من وصمة الزنا. نعوذ بالله من ذلك. وقد اجتمع في بيت عثمان بن مظعون مجموعة من الصحابة، وتشاوروا في أن يقطعوا مذاكيرهم ليستريحوا، فجمعهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ ووعظهم موعظة

شديدة، قال فيها: (من خالف سنتي فليس مني) [رواه ابن ماجة في كتاب النكاح 1]. وهؤلاء من تعلم، مراقبة وخشية من الله تعالى. فاحفظ يا أخى هذا العضو واحذر أن يلقيك في نار جهنم، أو أن تكون سبباً في إيجاد أنفس سجل عليها العذاب، فإن ابن الزنا يخلد في النار؛ لأنه نطفة نجسة، افتتحت بغضب الله تعالى، فكانت شراً على المسلمين، وضرراً لمن انتسبت إليهم كذباً، وما تقول في رجل يرث ما ليس له، وينسب إلى من ليس منهم؟ وهو نتيجة غضب الله تعالى، ومخالفة حكمه، بل ما تقول في عمل لا حد له إلا القتل؟ هذا وإني لأعجب من مسلم يصدق بقوله تعالى: ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰﭱ ﭼ (الحديد: 4). ثم يخلو بالأجنبية ويزنى فيها وهو يستحي أن يطأ زوجته أمام ولدٍ لا يبلغ الرابعة من عمره، فكيف يستحي من عمل الحلال أمام ولد صغير، ولا يستحي أن يعمل الحرام أمام الرب الكبير؟ يقول الله تعالى: ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳﭼ (المجادلة: 7). ولو أن لهذا الزاني عين تبصر، لذاب كما يذوب الثلج، خوفاً من الله المطلع، الناظر إليه، وكيف تقهر الشهوة البهيمية هذا المسلم الذي صدق الله في قوله تعالى: ﭽ ﭬ ﭭ ﭼ؟ فكيف يصدق أن الله معه، وتعمى بصيرته عن فهم الاية، ويرتكب الزنا، ويظن لجهله أنه في خلوة، والقهار المنتقم مطلع عليه ومعه؟ وقد انحط عن البهيم الأعجم الذي لا يعمل هذه الأعمال، كالحمام والجمال، وغير ذلك من الحيوانات التى لكل ذكر منها أنثى خاصة به. متى خلوت –أيها المسلم– نعم خلوت، ولكن من الخلق، ولكن الله مطلع عليك، وهو قادر أن يخسف بك الأرض، فتدارك نفسك قبل زاول النقم، وهل يرضى المسلم أن يرى أجنبياً يعلو زوجته، أو أمه، أو أبنته أظن أنه يغار غيرة تؤدى إلى القتل. فإذا كانت هذه غيرة الإنسان على محارمه، فكيف بغيرة القوي القهار على محارمه؟ إن الله غيور، ولغيرته حرم المحارم، وإذا غلبتك الشهوة –يا أخي– فأحضر جمرة من النار وجربه، فإن تحملها فافعل ما شئت،

وإن لم يتحملها فكيف ترضى أن عضواً صغيراً يدخل جسماً كبيراً في النار مخلداً؟ والله تعالى أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه آمين.

تَتَيَّمْتِ بَعْدَ ٱلشَّيْبِ مِنِّي عَنَاصِرِي تَمِيلِي مَعَ ٱلأَهْوَاءِ مَيْلَ ٱلْمُقَامِرِ
وَهَلْ بَعْدَ شَيْبِي يَاعَنَاصِرُ فِتْنَةٌ وَقَدْ شَغَلَتْنِي فِي ٱلشَّبَابِ مَظَاهِرِي؟!
وَهَلْ تَرْعَوِي أَمَّارَةَ ٱلسُّوءِ بَعْدَهُ تُرِيدِينَ أَنْ أُلْقَىٰ بِنَارِ ٱلْمَقَابِرِ
تَعَرَّفَ لِي ٱلرَّحْمَٰنُ فِي كُلِّ مَظْهَرٍ وَأَدْفَعُ جَهْلاً قَابِلَ ٱلتَّوْبِ غَافِرِي
وَفِي هَيْكَلِي ٱلْبُرْهَانُ أَنِّيَ عَبْدُهُ وَظُلْمِي وَكَمْ تَشْهَدُ ٱلتَّوْحِيدَ مِنِّي بَصَائِرِي
وَجَهْلِي يَدْفَعَانِي عَنِ ٱلْهُدَىٰ فَأَدْفَعُ رَحْمَانًا بِجَهْلِ ٱلْمُغَامِرِ
أَأَدْفَعُ مَنْ أَنْشَا وَأَعْطَىٰ وَوَدَّنِي بِخَيْرِ ٱلْعَطَايَا مِنْ وَلِيٍّ وَقَادِرِ
أَنِبْ مُقْبِلاً وَٱعْلَمْ يَقِينًا بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ ٱلتَّوَّابُ عَنْ كُلِّ سَائِرِ
وَسِرْ تَائِبًا وَٱنْهَجْ صِرَاطَ مُحَمَّدٍ لِيُنْجِيكَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِنْ كُفْرِ كَافِرِ لِيُظْهِرَنِي
يُجَمِّلُنِي ٱلرَّحْمَٰنُ مِنْهُ بِوَصْفِهِ نُورًا كَضَوْءِ ٱلزَّوَاهِرِ
يُخَدِّمُ لِي أَهْلَ ٱلصَّفَا مِنْ عِبَادِهِ وَأَمَّارَتِي يُسَخِّرُ لِي ٱلأَكْوَانَ كُلَّ ٱلْمَنَابِرِ
تَنْسَىٰ وَتَجْهَلُ وَيْحَهَا وَأَعْمَالُهَا قَدْ أَعْجَزَتْنِي تُسَارِعُ لِلأَخْطَاءِ فِعْلِ ٱلْمُجَاهِرِ
فَبَيَّنَتْ مَشَاهِدَ تَوْحِيدٍ عَلَتْ عَنْ مُكَابِرِ
تَحَقَّقْتُ عَجْزِي وَهْوَ تَوْحِيدُهُ ٱلَّذِي بِهِ قَدْ عَرَفْتُ ٱللَّهَ لاَ بِٱلدَّفَاتِرِ
بِعَيْنِ يَقِينٍ بَعْدَ عَجْزِي بِأَنَّنِي عَرَفْتُ بِهِ نَفْسِي تَوَالَتْ بَشَائِرِي بِعَجْزِي
لَقَدْ يَئِسَ ٱلشَّيْطَانُ بَعْدَ تَحَقُّقِي عَجِيبٌ وَلاَحَ ٱلْغَيْبُ نُورَ ٱلسَّوَافِرِ
يَكُونُ ٱلْعَجْزُ عِلْمًا وَقُرْبَةً وَكَشْفًا جَلِيًّا لِلْكِرَامِ ٱلأَكَابِرِ عَطَايَاكَ
لَكَ ٱلْحَمْدُ يَاتَوَّابُ تَمْنَحُ مَنْ تَشَا عَلَى بِٱلإِحْسَانِ وَٱللَّهُ نَاصِرِي لِيَشْهَدَ تَوْحِيدًا
ٱلنَّفْسِ وَٱلشَّيْطَانِ وَٱلْحَظِّ وَٱلْهَوَىٰ بِغَيْرِ ٱلسَّتَائِرِ

الباب الثامن

المكارم والعافية والقوت والأمن

الفصل الأول

أقسام المكارم

المكارم قسمان: أحدهما: ما ينال به الإنسان ثواب الله تعالى فضلاً وإحساناً، وهو كل عمل من أعمال الخير سارع إليه الإنسان ابتغاء وجه الله تعالى، ومن وفقه الله لهذا العمل أحبه، وأحبه الخلق، وهؤلاء هم السعداء في الدنيا والآخرة، وأعمال الخير معلومة، ويمكن تحصيلها إذا لم يتجمل بها قبل، بمصاحبة الأتقياء والعلماء العاملين، ومن علم مقدار ما يناله من الدنيا والآخرة بعمل المكارم، اجتهد في نيلها بالطرق الموصلة إليها.

القسم الثاني: ما ينال به الإنسان محبة الخلق، وحسن الأحدوثة بينهم بالصبر على عمل ما يعود عليهم، ولا تكون خيرات هذا القسم من الخير الحقيقي، إلا إذا اتبع الإنسان في عمله أحكام الشريعة، وحسن نيته، فإن من نفع الناس، وأرضاهم بما يغضب الله تعالى، أضر نفسه وغيره، وتفصيل هذا بديهي، فإن كثيراً من الناس يبيع دينه بدنيا غيره، والخير في الحقيقة ما كان صافياً لا شر فية.

السعيد حقاً من غلبت حسناته سيئاته، وجاهد نفسه حتى يكون محسناً سالماً من قبح التقصير، وإنما يسعد الإنسان بما اكتسبه من الأخلاق، وما قام به من جميع العبادات والمعاملات، ولا يستحق ذلك بالمكارم التى فطر عليها، من حسن الصوت، وتناسب الأعضاء وشرف النسب، والعقل، والذكاء، والفطنة، لوجودها بغير فعله، وإن مدحه الناس عليها.

الفصل الثاني

تغذية النفوس أولى من تغذية الأبدان

من العجب أن الإنسان ينتقى أجود الأطعمة وأنفعها لبدنه، ويتحفظ مما يضره، وهو ببدنه حيوان ضعيف بالنسبة لأنواع الحيوانات، ثم يهمل نفسه، فلا يغذيها بالعلوم، ولا يداويها بالتهذيب والتزكية، ويهمل العناية بهذا الدواء من التعليم، وحسن التهذيب، فيصير أقل من البهائم، وأضر من الشياطين، وأعجب من ذلك، الاهتمام بأعضاء الجسم، ويخص بالعناية بعض أعضائه لشرفها، فينتقى البيوت لجودة الهواء، ويهمل أجزاء النفس – وخصوصاً الأشرف منها – وهو العقل. وترى الإنسان إذا مرض عضو منه، سارع إلى الطبيب متملقاً له، وبذل نفائس الأموال ليعيد عليه ما فقد من الصحة، وقد تمرض نفسه بقبيح الأخلاق، وشر العوائد، فلا يهتم بمعالجتها، ويتساهل، حتى يصير أحط من البهائم، وأسفل من الشياطين، وإنما تعالج النفس بصحبة العلماء والحكماء، الذين جملهم الله –تعالى– بمكارم الأخلاق، وتكمل النفس بصحبة أهل التقوى من العباد والزهاد، وخير دواء للنفس أن يغذي الإنسان نفسه الملكية، بتلاوة القرآن الشريف، ومطالعة كلام رسول الله ﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾ وبالنظر في كتب العلماء بالله تعالى، مع المسارعة إلى التشبه بأولياء الله الأخيار، ويجاهد نفسه على الصفات الجميلة، وترك ضدها، ثم يقهر النفس الشهوانية، باجتناب السفهاء والجهلاء، والمتساهلين بالدين، والنساء والصبيان، والأراذل، حتى لا يقهر عدوه شهوته، وأن يطيل صحبة العاملين بكتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾ من المجتهدين والعباد والزهاد... وأن يراقب الله –تعالى– ويتذكر عذابه عند ثورة الشهوة، ثم يجتهد في تلطيف القوة الغضبية، فينظر فيما يناله من أذية غيره له، فيكره أن يضر غيره بما يكرهه في نفسه، ويلاحظ ما يعود على

المسيء في الدنيا والآخرة، ثم ينظر إلى غيره، فما كرهه في غيره من طيش وعجلة وانتقام، يجب أن ينفر منه عند الغضب، ثم يجاهد نفسه بإطفاء شعلة الغضب، بالطمع في عفو الله، والتباعد عما يضر.

وهنا يحسن أن نفصل هذا المجمل، بحكمة لأمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه:

سبب الحلم التواضع، سبب الغنى القناعة، سبب النبل العفاف، سبب العقل المداراة، سبب الأدب المواظبة، سبب الثناء السخاء، سبب الحظوة الصدق، سبب الجود الفضل، سبب قضاء الحوائج الرفق، سبب الرزق الطلب، سبب المزيد الشكر، سبب المحبة الهدية، سبب الأخوة البشاشة، سبب الغفلة الهوى، سبب الضعة الشح، سبب الفجور الخلوة، سبب القطيعة المعاتبة، سبب الفقر السرف، سبب المقت الخلف، سبب المذمة الكذب، سبب الذل السؤال، سبب الهوان الطمع، سبب الحرمان الكسل، والخير كله يجمعه الحياء والعقل.

الفصل الثالث

عناية الإنسان بالعافية والقوت والأمن

إن عناية الإنسان بحفظ عافيته، أو بردها عليه، إذا ألم بها ألم، عمل في طاعة الله تعالى، مع حسن النية، ومسارعته إلى عمل ما لا بد منه، ليعيش آمناً في سربه، مطمئناً على نفسه، لا يسومه عدو خسفاً، ولا يتسلط عليه خصم بالباطل، عمل مبرور مشروع، واجتهاده في تحصيل ما لا بد له منه، ولمن وجب عليه السعي عليهم شرعاً، عبادة لله تعالى، ليس من أعمال الدنيا، لأن الله -تعالى- خلق الإنسان وخلق له كل شيء، وقدر في أزله أن يكنز له كنوز المنافع في أرضه وشاء -سبحانه- أن لا ينتفع بها إلا بالكدح والعمل.

الفصل الرابع

حكمة خلق الله للإنسان

حكمة خلق الله الإنسان جلية لمن اجتباهم الله، وهي محصورة في ثلاثة معان: أولها: أن يستعمر بهم الأرض قال الله تعالى: ﮋ ﯿ □ ﮊ (هود: 61). ثانيها: أن يعبدوا الله تعالى. وثالثها: أن يبلغوا مقام القرب منه سبحانه حتى يكونوا خلفاء عنه -ﷻ- قال تعالى: ﮋ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﮊ (الذاريات: 56). وقال تعالى: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕﭖ ﮊ (البقرة: 30).اقتضت الحكمة الإلهية أن يهب الله تعالى للإنسان الآلات والأدوات التى أعانه الله —تعالى- بها على نيل ما يسره له وقدره، ولا يتسنى للإنسان أن يعبد الله —تعالى- إلا إذا توفرت له العافية والأمن والقوت، بل ولا يبلغ درجة الخلافة عن ربه سبحانه وتعالى إلا إذا تحصل على العافية والأمن والقوت.

وكل عمل لتيسير تلك الضروريات مندوب شرعاً، وقد يكون واجبًا يثاب العامل فيه أكثر مما يثاب الصائم القائم.

ولما كان كل إنسان في أشد الاحتياج إلى تلك الأشياء، حصلت المنافسة بين الناس، ولزم أن يكون هناك شرع يكبح النفوس عن جشعها، والأجسام عن مقتضيات فطرها، والحواس عن استرسالها فيما لا يباح لها، حتى يعيش الإنسان أخ الإنسان، متحصلاً على العافية والأمن والقوت، ليتفرغ لشكر من أنعم عليه بسوابغ النعم، قيامًا بحقوق عبادته سبحانه وتعالى، واستعداداً لنيل فضله المقدس، من الخلافة في الدنيا، وجوار أولياء الله الأطهار يوم القيامة.

الفصل الخامس

بالتمسك بالشرع الشريف تحصل المسرات في الدنيا والسعادة في الآخرة

وكل إنسان تمسك بالشرع الشريف، تحصل على أنواع المسرات في الدنيا، وفاز بالسعادة في الآخرة، ومتى تجاوز الإنسان حدود الأدب مع الشريعة، فأطاع طمعه وحظه وهواه، صار شقيًّا- وإن توفر ماله -منحوسًا- وإن بلغ آماله- لأنه يصير لا يحبه إلا نفسه، ويبغضه أهله ووالداه والناس أجمعون، إلا من داراه خوفاً من شره، أو واراه اتقاء أذيته، وما هذه الحياة التى يكون فيها الإنسان كمسجون، أقيم خادماً لمخازن السجون، كذلك تكون حياة من تعدى الآداب الشرعية، يكثر ماله، وتنتشر شهرته، ويجعل بطنه كقبر للحوم الحيوانات، وجسمه كنوافذ بيوت الملوك، عليها ستائر الخزنة والديباج، وقلبه محترق بالحقد والعداوة، وحب الانتقام، والتربص لمن عاداهم بغير سبب، فلا ينام الليل من نار حب الانتقام، بل ومن الخوف من أن ينتقم منه، يجالس أهل الشرور والفساد ليستعين بهم على الانتقام، فيتخذ شرار الخلق أصدقاء يستعين بهم على من أمره الله بصلتهم، ويبذل نفائس أمواله للظلمة المتسلطين، أو أعداء الله المتغطرسين، ليكبت أقاربه وأرحامه، هذه حياة السباع والوحوش الكاسرة في الغابات، أو اللصوص النافرة في الظلمات، وبئس تلك الحياة. ولو تدبر هذا الشقي لعلم مبدأه وبعاده، وأنه خلق من بولة بالها أبوه في رحم أمه، وأنه خرج من فرج أمه عرياناً، فرأى نعم الله تحيط به في السماوات والأرض، فإذا تبصر وعلم أنه سيرحل عن تلك الدار الدنيا إلى الدار الآخرة، وأن مردَّه إلى الله، لبكى على نفسه قبل حلول رمسه، وسارع إلى آداب الشريعة فتمسك بها، وتعصب لها، ولديها، يذوق لذة الحياة، حياة الأنس بالله تعالى، حياة التجمل بأخلاق رسول الله ﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾، حياة الإقبال على الله تعالى بالكلية، ولديها، يدله الله تعالى على

مرشد عارف بالله، يبين له طريق الله تعالى، ويدله على معارج الوصول إلى الله تعالى، ويسلك معه على صراط الله المستقيم، فيحيي حياة الأبرار المتقين، عاملاً من عمال الله المخلصين، سعيدا في الدنيا والآخرة، مسارعاً إلى إحياء سنة رسول الله ﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾ وإعلاء كلمة الله. تلك الدرجات العلا لا تنال إلا بالأخلاق، ولا أخلاق إلا بتزكية النفس، ولا تزكى النفس إلا بحفظ آداب الشريعة، ولا تحفظ آداب الشريعة إلا بعلم الكتاب والسنة، ولا علم إلا بمرشد عارف بالله، متمكن.

الباب السادس

حفظ العافية والعمل لجلب القوت والأمن عبادة

إن حفظ العافية على الإنسان، ليكون عاملاً من عمال الله تعالى، لخير المسلمين، وإحياء السنة، وإعلاء الكلمة، من أكمل العبادات، وإن العمل ليحصل الأمن للأمة، وبذل النفس والنفيس لنيله مما يقرب إلى الله تعالى، وهى من وظيفة الرسل –صلوات الله وسلامه عليهم– وإن العمل للقوت –خصوصاً إذا كان الإنسان ذا عيال– أفضل عند الله من الصيام والقيام في نافلة، والمريض لا يحسن عبادة الله تعالى، ولا استعمار أرضه، ولا يصلح أن يكون خليفة عن ربه، والخائف لا يمكنه أن يتفرغ للعلم، ولا للعمل الصالح في الدين، أو في الدنيا، في حاله أو مستقبله. وقد يكون الواجب على الأمة جميعها، أن تتحد قلباً وقالباً على تحصيل ما يحصل به إلا من في الدين والدنيا، والعرض، والمال والأولاد، حالاً ومستقبلاً، حتى يطمئن القلب على حفظ العوائد، والأخلاق، وموارد الثروة وحسن المعاملة، وتولي الأمر من يحب الخير للأمة، ويحفظ دينها ودمها ودنياها وعوائدها الجميلة وفنونها، وصنائعها ليحيا أفراد الأمة في أمن وأمان، وراحة جسم وقلب، في صلح وصلاح، تتبادل أنواع المسرات والخيرات، يرحم كبيرهم صغيرهم، ويعظم صغيرهم كبيرهم، حتى يكونوا كالجسد الواحد يخدم كل عضو منه سائر الجسد، وهل يحيي جسد وقلبه من غيره؟ أو يقوى جسم ورأسه من غيره؟ اللهم لا.

الفصل السابع

نتائج الأخلاق

الأخلاق بها يكون الإنسان فوق الملائكة قدرا، أو أضر من الشيطان شرا، والإنسان بأخلاقه قد يجانس عمار ملكوت الله، حتى يسمع بجوهر نفسه النفيس، كلام الله، وتصافحه الملائكة في الطرقات وعلى فرشه، وقد ينحط بأخلاقه حتى يكون شرا من الشيطان، وأضر من الثعبان، وأثقل من جبل رضوى، وأبغض إلى الخلق من المرض العضال، وعجباً للإنسان! أعده الله أن يكون مواجهاً بوجهه العلي، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويسر له المعارج التى يرقى عليها، ويأبى إلا أن يظلم نفسه، فيكون في الدرك الأسفل من النار. والسعيد حقاً من أدبه الله تعالى بالآداب الشرعية، ووفقه للعمل بمحاب الله تعالى ومراضيه.

الباب التاسع

الطريق عند الرجال

الفصل الأول

الطريق ومآخذه

الطريق هو السبيل، ومآخذه عند الرجال من قوله تعالى: ﮋ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﮊ (الأحقاف: 30) وهو في اصطلاح أهل السلوك إلى ملك الملوك، محو ما بينك وبين الوصول إلى مقصودك، فالسالك إلى نيل قصده يترك وراءه آثاراً كثيرة، حتى يمحو كل بين يحجبه عن مقصده، ولذلك، السالك في طريق الله تعالى ينسلخ من كل ما يحجبه عن الحق ﷻ، حتى ينمحي البين من البين، وتقع العين على العين، إما مراقبة، أو رعاية، أو شهوداً، أو طمأنينة قلب في مقام اليقين الحق، بعد مراتب اليقين علمًا وعينًا.

طَرِيــقُ أَهْــلِ ٱلصَّــفَا بِٱلْحَـالِ وَٱلْقَــوْلِ   هُــوَ ٱلصِّــرَاطُ عَلَيْــهِ ٱلسَّــيْرُ لِلْوَصْـلِ
لِحَضْــرَةِ ٱلإِجْـتِلاَ بِٱلْفَضْـلِ لاَ ٱلْعَــدْلِ   عَلَيْــهِ سَــارَ ٱلأُلَىٰ بِــٱلْحَقِّ فَٱتَّصَــلُوا
لأَنَّـــهُ مَـــنْهَجُ ٱلْمُخْتَـــارِ بِٱلْفِعْـــلِ   مَـنْ مَـالَ عَنْـهُ هَـوَىٰ فِي ٱلنَّـارِ مُخْتَبِطًـا
وَأَمْــنُ مُقْتَــدِرٍ ذِي ٱلْجُــودِ وَٱلْفَضْـــلِ   هُـــوَ ٱلسَّـــبِيلُ وَحَبْـــلُ ٱللَّهِ مُتَّصِـــلٌ
تَجَـاوَزَ ٱلشَّــرْعَ قَــدْ يَنْـأَىٰ إِلَى ٱلــذُّلِّ   مَـنْ خَـالَفَ ٱلشَّـرْعَ مُعْتَـدِيًا يَضِـلُّ وَمَـنْ
بِفَضْـلِهِ مَـنْ صَـفَوْا لِلْحُـبِّ وَٱلطَّـوْلِ   شَـــرِيعَةُ ٱللَّهِ عَهْـــدُ ٱللَّهِ يَمْنَحُـــهُ
مُفَـارِقُ ٱلشَّـرْعِ يَنْـأَىٰ أَسْـفَلَ ٱلسُّـفْلِ   هِــيَ ٱلْعِنَايَــةُ وَٱلْحُسْــنَىٰ لَهُــمْ سَــبَقَتْ
مُتَّعِـــينَ لَـــدَى ٱلإِحْـــرَامِ وَٱلْحِـــلِّ   أَدِمْ لَنَـــا ٱلْحِفْـــظَ وَٱلآدَابَ خَالِقَنَـــا

الفصل الثاني

بداية الطريق

بدايته مجاهدة لتزكية النفس، بالقيام بما فرض الله –تعالى– أولا وبالذات، وبما رغب فيه رسول الله ﴿ﷺ﴾، وبالمسارعة إلى كل خلق جميل، وعادة حسنة وعمل حق يحبها الله –تعالى– ورسوله، ثم يأخذ في الانسلاخ من مألوفاته وعوائده الكمالية أولاً، ثم يقلل من مألوفاته الضرورية، حتى تصل به المجاهدة إلى مالا بد لبقائه منه، ثم يأخذ في البحث عن الحي القائم، الدال على الله، العالم بالنفوس وأمراضها، من نزوع الشهوات والأهواء، وميول إلى ما يلائم النفس، العالم بالحقائق التى خلق الله منها الإنسان؛ فإن الله –ﷻ– خلق الإنسان متطورا في بطن أمه، من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظام، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأه خلقاً آخر، بعد أن افتتح خلقه من سلالة من طين، ثم جعل –سبحانه وتعالى– فوق سبع طرائق، وهذا العالم بالنفوس هو العالم بالله، وبأيام الله، وبأحكام الله، وطلبه فريضة؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعالم، ومتى سعد السالك في طريق الله بهذا العالم، أكمل الله له دينه، وأتم عليه نعمته، ورضي له الإسلام ديناً. ومعلوم أن العالم أجمع، لا يجهلون اللإله الحق، الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، واستوى على العرش، وإنما المجهول علم ما يحبه ويرضاه، من العقيدة، والأخلاق، والعبادات، والمعاملات، والقيام بما يحبه ويرضاه بعد العلم، وشهود أنواره وأسراره وآياته في مكوناته، مع كمال التنزيه والتسليم لله تعالى من غير منازعة بالعقول، ولا مخالفة بالنفوس، حتى يصل إلى مقام من أثنى الله عليهم بقوله: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﮊ (الأنعام: 82). أما تفصيل ما أجملت، وتوضيح ما أبهمت، فقد شرحناه في كتبنا، فراجعه، والله سبحانه هو الهادي لأقوم طريق.

الفصل الثالث

(من عرف نفسه عرف ربه)(1)

الإنسان إذا جهل نفسه، انحط فصار كالأنعام أو أضل، وربما انمسخ فكان شراً من الشيطان، يعبد هواه وحظه، لا يمنعه عن فعل الشر إلا سوط سلطان، أو مرض أو عدم إمكان، والجاهل بنفسه عدو نفسه، يرمي بها في مهاوي الهلكة، فلا يبالى أن يغضب الله ورسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ إذا تيسر له حظه، لا ينظر بعين الفكرة، ولا يتدبر بباعث العبرة، وإنما قيمة الإنسان في المجتمع بقدر علمه بنفسه، فإذا رأيت إنساناً يستهين بأحكام الله، فلا يحرم ما حرم، ولا يقوم بما عليه أوجب، فاحكم عليه أن صورته صورة إنسان، وحقيقته حقيقة شيطان وتوق شروره، فلا تأمنه على مال، بل ولا على عرض، بل ولا على دين، وكيف تأمن من يهلك نفسه بمخالفة أحكام الله تعالى؟ خصوصاً ما كان منها صريحاً، ولا يقبل التأويل، فقد يترك الإنسان المسلم الصلاة والزكاة والصيام والحج، ويظهر نفسه أمام الناس أنه ولي، وقد يستعمل الربا في معاملته، فيغضب الله تعالى ليجمع المال، وقد يشرب الخمرة مع تحققه بضررها، وصعوبة تناولها، وغلو ثمنها وحرمتها ديناً، وإفسادها للصحة، والعقل، والشرف بين الناس، ومع علمه الحقيقي بتلك المضار كلها، يشربها فرحا متلذذاً، أمثل هذا يكون إنساناً؟ لا. بل ولا حيواناً، بل ولا شيطاناً، لأن الحيوان لا يضر نفسه، وإن أضر غيره، والشيطان لا يقصد ضرر نفسه، ولكنه يجتهد أن يضر غيره بالغواية، فإذا أضر غيره تبرأ منه. وهذا الجاهل بنفسه يضر نفسه، بعمل المحرمات، ويضر أقاربه وأحبابه لأنهم يقلدونه في أعماله إن كانوا جهلاء مثله، أو يقهرونه على ترك القبائح إن كانوا

(1) [رواه أبو المظفر ابن السمعاني في القواطع عن يحيى بن معاذ الرازي وقال النجم قلت وقع في أدب الدين والدنيا للماوردي عن السيدة عائشة رضي الله عنها].

عقلاء، فتحصل العداوة والبغضاء.

الفصل الرابع

معرفة النفس وتربيتها أصل النجاة

والواجب علينا المسارعة إلى تربية أنفسنا التربية الدينية التي بها يمكننا أن نتشبه بسلفنا الصالح، فنفوز بالمجد في الدنيا، وبنيل الحسنى يوم القيامة.

عن كميل بن زياد قال: (سألت مولاي أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين: أريد أن تعرفني نفسي، فقال: يا كميل وأي الأنفس تريد أن أعرفك؟ فقلت: يا مولاي وهل هي الأنفس واحدة؟ قال: يا كميل إنما هي أربعة: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية. ولكل واحدة من هذه خمس قوى، وخاصتان: فالنامية النباتية لها خمس قوى: جاذبة، وماسكة، وهاضمة، ودافعة، ومرتبة، ولها خاصتان الزيادة والنقصان وانبعاثها من الكبد.

والحسية الحيوانية لها خمس قوى: سمع، وبصر، وشم، وذوق، ولمس، ولها خاصتان :الرضا والغضب، وانبعاثها من القلب.

والناطقة القدسية لها خمس قوى: فكر، وذكر، وعلم، وحلم، ونباهة، وليس لها انبعاث، وهى أشبه الأشياء بالنفوس الملكية ولها خاصتان: النزاهة، والحكمة

والكلية الإلهية لها خمس: قوى بقاء في فناء ونعيم في شقاء، وعز في ذل، وفقر في غنى، وصبر في بلاء، ولها خاصتان: الرضا، والتسليم، وهذه هي التي مبدؤها من الله وإليه تعود، قال الله تعالى: ﮋ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﮊ (الحجر: 29). وقال تعالى: ﮋ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﮊ (الفجر: 27-28).

الفصل الخامس

صفاء النفس

النفس إذا صفت اقتبست من الغيب المصون، وآثار النفوس محسوسة، وانفعالاتها عند المقتضيات جلية، ومن ذلك أهل الفراسة، والعرافون والكهان، والسحرة والمشتغلون بالرمل، وطرق الحصى، والتفاؤل، والحكم على غد بما هو في اليوم، والحكم على حصول الشئون بالنجوم، وأغلب هذه الظنون والتخمينات تحصل غالباً، وما يكون للفرد يكون للأمة.

اليوم ينبيء بالإشارة أن الله تعالى سيرفع من خفضتهم الغفلة، وأضعفهم النوم، ويخفض من غرتهم المهلة وقواهم الغرور. الحق فوق الخلق، والملك يعطى بفضل الله، ويحفظ بالعدل، فمن وهب له الملك، وظلم الخلق، سلب منه الحق ما أعطاه، وسلط عليه من استضعفهم من عباد الله. ترك المسلمون وصايا نبيهم ﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾ وهجروا كتاب ربهم –سبحانه– وبالكتاب والسنة مكنهم الله في الأرض، وصرفهم في الخلق، ومن ترك ما به رقية انخفض، وهى سنة الله تعالى، سلط الله عليهم أمما من غيرهم ليؤدبهم، فلما أن مكنهم الله منهم، وما كان لهم أن يتمكنوا من مجتمع كثير عدده وعدده لو اتحد، قوية شوكته، منيعة داره، بعيد مناله، لو حافظ على وصايا رسول الله﴿ﷺ﴾، فلما سلطهم الله غرتهم المهلة، فطعنوا في دين الله، ونشروا الأكاذيب عن رسول الله﴿ﷺ﴾، فغضب الله لدينه ولرسوله﴿**صلى الله عليه وآله وسلم**﴾، فألقى العداوة والبغضاء والحرب بينهم، فذلوا بعد العزة والقوة والتمكين، وألقى الألفة والاتحاد على عبيده المستضعفين في الأرض فعزوا. سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فاليوم ينبيء بخير الغد، وإذا ما أراد الله شيئاً هيأ أسبابه، هذه كلمة الفراسة.

أما كلمة التنجيم، فقد قارن المريخ كيوان في آخر درجة من الميزان، فتم الهبوط، وابتدأ الصعود، ونادى كيوان برفعة أهل الإيمان، في كل مكان أما العرافة، فإذا حصل الهرج والمرج، وطاشت الأحلام، واستيقظ المحروم، من حقه المعلوم، وتغيرت الدول، وظهر التوحيد على كل الملل، أما الكهانة فإذا دارت الكؤوس، وأزهقت النفوس، وطاشت الأحلام، وانتشر الملام، وتغير السلام، ورجعت الشمس إلى مشرقها، أما المنامات فقد كثرت، تشير إلى زوال الآفات، وتوالي البركات، وكل ما هو آت آت: وإنما الخير بتقدير الله وبالجد لا بالحيلة والكد. يعطى بفضل الله وإحسانه، ويسلب بعدله وتقديره، ولا حول ولا قوة إلا بالله قال الله تعالى: ﴿ ۇ ۆ ۈ ۈ ۉ ۋ ۋ ﴾ (الشرح: 5،6).

الفصل السادس

السياسة مرض في النفوس

نيل القصد بالجدل، بالسياسة والكد، أقول السياسة مرض في النفوس، لأنها نوعان سياسة الإقدام لنيل البغية والمشتهيات من الغير مع ضرورة، وسياسة الإحجام عن الانتفاع بما هو نافع، حرصاً على الحياة، أو استبقاء لها بالقليل مما لا بد منه، وهي سياسة الأمم الجاهلية، والأمم المضلة؛ لأنها فطرة في الإنسان من حيث هو إنسان وهذان النوعان من السياسة يستعملها الإنسان، حتى من سن الطفولية، إلا أن الوسائل تتفاوت، فقد تكون قهراً ظاهراً بالخداع والختل، عند المساواة في القوة. وكلا النوعين مضران جداً بالمجتمع الإنساني، وهو أشبه بعمل الوحوش منه بعمل الحيوانات الداجنة، فالإنسان مهما ارتفع كعبه في العلوم والفنون والصناعات، فهو اضر من الوحوش وشر من الشياطين، ما لم يتهذب بالآداب الشرعية، ويتأدب مزكيا نفسه برعاية ما جاء به رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، كيف يتلذذ الإنسان بالانتقام من غيره، ويفرح بسلب نعمة غيره وهو غني عنها؟ وفرح بحزن الغير هو فرح الوحوش.

الباب العاشر

الأخلاق

الفصل الأول

النفوس النورانية

تتفاوت النفوس بحسب استعداداتها، فمن النفوس ما هو من أصغى الجواهر النورانية، حتى تبلغ النفس مبلغاً تتجمل بالفيض المقدس، فتصل إلى مقام من القرب، حتى ترى الملائكة وتأنس بها، وتشهد الحكمة في كل شيء، وقد ترتقي عن هذا المقام إلى ما هو أعلى منه، وهو مقام التلقي عن الرب -ﷻ- قال تعالى: ژ ﯾ ﯿ □ □ □ ژ (البقرة: 37). وقال تعالى: ژ ﭽ ﭼ ﭻ ﭺ ژ (النساء: 164). ودون ذلك مقامات من القرب، تظهر جلية في النفوس الصافية الزكية، فترى الإنسان ينجذب بكليته إلى عمل الخير الحقيقي، من الرحمة والرأفة، والعفو والإحسان، والسماح ودفع السيئة بالحسنة، متلذذا بما يناله في سبيل ذلك من المهانة بين الناس، وفقد الأموال والجاه، تلذذا بما يحصله من الصفات الجميلة والفضائل الكاملة التي أثنى الله تعالى على من تجمل بها، فيكون ما فقده من المال والجاه، وما صبر عليه من البلاء والشدة، مضمحلاً في نظره بالنسبة لما شهده بعين بصيرته في نفسه، من مكارم الأخلاق، التي يعلم أن الله تعالى يحبها، فتحصل له البهجة المؤدية إلى شكر الله تعالى. أهل تلك النفوس في أنس دائم ومسرات متوالية؛ لأن ما تتلذذ به نفوسهم، تحصلوا عليه، وهو التجمل بالصفات المحمودة شرعاً. وهؤلاء يحبهم الله، ويحبهم الخلق، إلا حسوداً، أو منافقا، أو كافراً، وليست محبة الله للعبد بالأمر الذي يستهان به، إلا عند من أبعدهم الله عن السعادة، لأن نيل محبة الله للعبد فوق كل غال ونفيس، من حال وحياة ونفس، وإن كانت محبة الله للعبد هي سبب محبة العبد لله تعالى، لأن الله إنما يحب

فيه من أحبه، فيقيمه –سبحانه– عاملاً له بما يحبه ويرضاه ﷻ، وهذا العبد يكون في نهاية المسرات والشكر، أما نهاية المسرات فلأن الله تعالى يحبب فيه عباده، فيقبلون عليه، لما جمله الله تعالى به من الأخلاق الكريمة، ويعينه الله بهم، وأما الشكر فلأنه يرى ما أقامه الله فيه من الإقبال عليه سبحانه، ومن القبول عند الخلق، ويرى غيره من أهل المعاصي فيشهد نعمة الله تعالى عليه، وفضله الواصل إليه، فيسارع إلى شكر الله، والشكر سبب المزيد. قال الله تعالى: ژ ﭭﭮ ﭯﭰ ژ (إبراهيم: 7) هذا العبد المتجمل بتلك الأخلاق، إليه تسارع الناس لقضاء مصالحهم، إما ببذل ما في وسعه، أو بالمساعدة بجاهه، أو بالدعاء الصالح لهم فيما لا وسيلة له إليه.

كل هذا الخير العظيم بسبب الأخلاق، وهل تلك الأخلاق يكتفي الإنسان في التجمل بها بصفاء جوهر نفسه، أم لا بد من تحصيل آداب ورعاية أحكام؟

الفصل الثاني

النفوس النورانية في حاجة

إلى التأديب والتزكية، والرعاية

إن النفوس – وإن صفت جواهرها – فهي في حاجة إلي التأديب والتزكية، والرعاية، ولذلك مثل في المحسوسات، فإن أنفس المعادن وأصفى الجواهر، في حاجة إلى تطهيره وتجريده، ثم إلى من يصوغها حتى تبلغ درجة الكمال التى أهلت لها، فقد تكون زينة في تاج الملك، أو حليا للغانيات، أو نقودا يحصل بها تبادل المنافع بين الناس، فكذلك تلك النفوس، لا يمكن أن تكون زينة وجمالاً، تبلغ الدرجة التى أهلت لها، إلا بالتزكية، والتأديب والتربية، ولما كان هذا الكمال النفساني هو الوصول إلى الله تعالى، والفوز بفضله العظيم، في دار كرامته مع رسله الكرام، وأهل محبته من الصديقين والشهداء والصالحين، لزم أن تكون التزكية والتربية والتأديب منه سبحانه وتعالى لنا؛ لأن كمالنا بالوصول إليه -سبحانه وتعالى- وباتصالنا به ﷻ، ولا وصول إليه إلا بما هو منه، تقدست ذاته، وما هو منه سبحانه محصور فيما جاء به رسول الله ﴿ﷺ﴾، إذاً فلا كمال للنفوس إلا بالمسارعة إلى ما يحبه الله سبحانه وتعالى، وما يحبه الله تعالى هو ما جاءنا به رسول الله﴿ﷺ﴾ من عند الله تعالى، عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا، فإذا سارعت النفس إلى طاعة رسول الله﴿ﷺ﴾، وحرصت على اتباعه﴿ﷺ﴾ حكمنا -والحكم لله الواحد القهار- أن تلك النفس هي من الجواهر النفيسة، سبقت لها الحسنى من الله تعالى.

الفصل الثالث

العالم أجمع ينافس في تحصيل الخير

فإن العالم أجمع من النباتات والحيوانات والأناسي ينافس في تحصيل الخير، فترى الأشجار الكبيرة تأكل غذاء الأشجار الصغيرة فتضعفها، وتحجب الشمس عن النباتات الصغيرة فتميتها، منافسة في الخير، وترى الحيوانات في حرب عوان منافسة في الحياة بحسب رتبتها، وترى الإنسان وكذلك ينافس في هذا الخير بحسب علمه، وأهل الدرجات العلا من بني الإنسان تحققوا أن تلك الدار الدنيا سفر وارتحال، لا دار مقام وآمال، فتقللوا منها، وسارعوا بالكلية إلى دار القرار، دار البقاء، دار النعيم الأبدي، وعملوا لنيل رضاء الله، والفوز بجوار رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، في دار كرامة الله، ولا سبيل إلى نيل تلك الخيرات إلا بعلم مقدار الدنيا، ووضعها في المنزلة التى تليق بها من القلب، حتى لا تستغرق كلية القلب، ليتفرغ لمقلبه -ﷻ- ومن كان كذلك قلت منافسته في الفاني، وسارع إلى نيل ما يبقى له عند مفارقة هذا الكون، ولا يفرغ قلبه إلا بالتخلق بالأخلاق الجميلة التي تجعله يتلذذ بالآلام في طاعة الله، ويفرح بالتعب في مساعدة إخوانه، ويحب لأخوته ما يحبه لنفسه، ويخلص النصيحة لجماعة المسلمين، ويحرص على نيل الخير للخلق أجمعين. كل تلك الأخلاق، لا يمكن أن يحصلها الإنسان إلا باتباع رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولا يمكن ذلك إلا بتحصيل العلم النافع الذي يتصور به ما كان عليه رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأصحابه حتى يتشبه بأئمة الهدى، فيكون منهم بالمجاهدة، أو يكون معهم بالمشابهة.

الفصل الرابع

النفوس الكثيفة

وهناك نفوس دون تلك النفوس، لم تستعد لهذا الفيض المقدس، فهي أشبه بنفوس الأنعام السائمة، تدعوها ضرورة الجوع إلى تحصيل القوت، وضرورة الحر والبرد إلى الثياب، وضرورة الراحة إلى المسكن، وبواعث الشهوة إلى الزوجة، تتفاوت تلك النفوس بقدر وتفاوت نفوس الحيوانات، فمنها النفوس السبعية جرأة وانتقاماً، ومنها النفوس الثعلبية تملقا وخديعة، وتلك النفوس لا تستقيم بالقرآن، ولا بالسنة، إلا بسوط التحذير، أو بسيف الحدود الشرعية، ولولا ذلك لما انتظم العمران، وتلك النفوس لا تخاف الله، ولا وعيده، فإنها إذا تمكنت في خلوة أفسدت وأضرت، ولكنها إذا أراد الله لها الخير، قدر لها الوجود مع أهل التقوى والهدى، وأحوجها إليهم فقهرها الاحتياج إلى التشبه بهم، وبطول صحبتهم تصير الكمالات عادة لهم، فتحصل لهم السعادة. فكل من أراد السعادة مع أولياء الله الأطهار، يجب أن يتباعد بالكلية عن صحبة الأشرار، ومجالسة أهل الغفلة المنكبين بكليتهم على ملاذ الحياة الفانية، وتحصيل ما ييسرها لهم من المال والجاه، والتقرب من الأمراء والوزراء، فإن أمثال هؤلاء تنحط هممهم إلى أن تكون أدنى من الثعالب، وأسفل من النباتات المتسلقة، فتنمسخ حقيقتهم عند العلماء الربانيين، ويكونوا من البهائم الراتعة، لأنهم أهملوا تكميل أنفسهم بالعلوم، وتكميل أبدانهم بالعبادة والأعمال المفيدة، وأضاعوا أعمارهم في معرفة غني يخدعونه، أو ذى سلطان يتملقون له، فتفسد أخلاقهم، وتحتوشهم الشياطين فيتصلون بها، ويتلقون عنها، فتكون عقائدهم فاسدة، وأخلاقهم سيئة، وأعمالهم قبيحة، فيعيشون في تلك الدار عيشة الكلب في زمان طاعون البقر، فإذا فارقوا الدنيا، وتحققوا أنهم أضاعوا التحصيل وأوقات العمل في لذة ينالونها، أو شهوة يسارعون إليها، ندموا، ولات حين مندم. وكم من مستعمل الدين آلة لجلب الدنيا،

ومن متجمل للخلق ليخدعهم، فيفسد عليهم العرض والدين، ومن أهمل تكميل نفسه، ونسي لقاء ربه، فهو لا شك عدو لنفسه؛ لأنه أوردها موارد الهلاك، وعدو نفسه لا يكون حبيباً لغيره.

بَيْنَ أَمَّارَتِي وَرُوحِي ٱلْعَلِيَّهْ | بَرْزَخٌ يَحْجُبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْجَلِيَّهْ
حَيْثُ أَمَّارَتِي إِلَى ٱلسُّفْلِ تَهْوِي | بَيْدَ رُوحِي تَرْقَىٰ إِلَى ٱلأَوَّلِيَّهْ
أَيُّهَا ٱلرُّوحُ كُنْتِ نُورًا مُضِيئًا | مِا لِنَفْسِي تَدْعُو لِسَلْبِ ٱلْمَزِيَّهْ
قَالَتِ ٱلرُّوحُ إِنَّ نَفْسِي بُرَاقٌ | يُشْهِدُ ٱلرُّوحَ مَا يُرَىٰ فِي ٱلْبَرِيَّهْ
فِي ٱلْمَبَانِي آيَاتُ مَجْدٍ وَغَيْبٍ | لَوْ تَرَاءَىٰ لَنِلْتِ خَيْرَ عَطِيَّهْ
تِلْكَ أَمَّارَتِي بِهَا قَدْ تَرَاءَىٰ | لِي بِهَا ٱلْغَيْبُ فِي صُوًى مَعْنَوِيَّهْ
كَيْفَ أَرْقَىٰ إِلَىٰ شُهُودِ حَبِيبِي | إِذْ أَنَا جَوْهَرٌ وَدَارِي قَصِيَّهْ
جَاهِدِ ٱلنَّفْسَ فَهْيَ كَنْزُ ٱلْمَعَانِي | كَيْ تُرِيكَ ٱلآيَاتِ فِيهَا جَلِيَّهْ
قَبْلَ نَفْسِي قَدْ كُنْتُ فِطْرَةَ نَوْعٍ | بَعْدَ نَفْسِي لاَحَتْ مَعَانٍ خَفِيَّهْ
بِٱلْجِهَادِ ٱرْتَقَيْتُ عَالِينَ حَتَّىٰ | نِلْتُ قُرْبًا فِي خُطْوَةٍ وَاحِدِيَّهْ
حِكْمَةُ ٱللَّهِ جَمْعُ ضِدَّيْنِ أَجْلَىٰ | لِي مَعَانٍ تَلُوحُ لِي قُدْسِيَّهْ
مَنْ أَنَا قَبْلَ وَصْلِ رُوحِي بِنَفْسِي | رُوحُ عَالٍ أَوْ صُورَةٌ مَرْوِيَّهْ؟!
بِٱتِّصَالِي بِٱلنَّفْسِ وَاجَهَنِي ٱللَّـ | ـهُ ٱصْطَفَانِي بِخُطْوَةٍ مَرْضِيَّهْ
فِطْرَةً كُنْتُ لاَ أَنَالُ رُقِيِّي | صِرْتُ بِٱلنَّفْسِ فِي مَقَامِ ٱلْمَعِيَّهْ
جَاهِدِ ٱلنَّفْسَ تُجْلِي نُورَ ٱلتَّجَلِّي | تُشْهِدُ ٱلرُّوحَ فِي ٱلصَّفَا ٱلصَّمَدِيَّهْ
وَيْ وَنَفْسِي أَمَّارَةٌ غَيْرَ أَنِّي | فِي جِهَادِي نَفْسِي أَرَى ٱلأَبَدِيَّهْ

الفصل الخامس

الأمة بأخلاق أفرادها

وهنا يجب أن نحكم حكماً لازماً، أن العائلة بأخلاق أفرادها، فإذا نهجت العائلة منهج التقوى والاستقامة، وتجملت بفضائل الأخلاق، سادت ونمت، وسعدت في الدنيا والآخرة، وكذلك الأمة، متى كثر فيها أهل الصفا، بل وعظم فيها العالمون العاملون، واحتقر فيها الجهلاء المخالفون، عرف كل فرد منها قدر نفسه، وما يجب عليه لغيره، فسارع كل واحد منهم لخير الأمة، معتقداً أن سعادة الأمة سعادة له، واهتم بشأن المجتمع أكثر مما يهم بشأن ذاته، إلا بقدر الضرورة، وإذا اهتم كل فرد لخير الأمة، عم الخير جميع الأفراد، ولا خير أنفع ولا أدوم من الخير الذي تناله الأمة بسبب التشبه برسول الله ﴿ﷺ﴾، والاقتداء به، والسير على نهج السلف الصالح، الذي به دان العالم أجمع، وكيف يرضى المسلم أن يكون ذليلاً، ويمكنه أن يكون عزيزاً؟ وتابعاً، ويمكنه أن يكون متبوعاً؟ أو يرضى أن يعمل بغير كتاب الله وسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾، واعتقاده أن ذلك هو الحق وأنه السعادة في الدنيا والآخرة، إذاً لا يرضى بذلك من كملت نفسه بالعلم، وكمل جسمه بالسمع والطاعة، قال الله تعالى: ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ (الأنفال: 46). وقال الله تعالى: ﭐ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ (آل عمران: 103). وقال ﴿ﷺ﴾ : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [رواه مالك في كتاب حسن الخلق الحديث 8 وأحمد في الجزء الثاني صفحة 381]. وإن أكمل معلم للإنسان ما يراه بحسه، فإن يرى أشياء كثيرة يكرهها من غيره عليه أن يتركها، ويرى أشياء كثيرة يحبها من غيره، فيجب عليه أن يسارع إليها، ومن كره من غيره عملا وعمله فهو أحمق، ومن أحب عملاً من غيره وتركه فهو شقي. وفي المثل (وكونك إياه عليك يسير) ومن قهرته نفسه على فعل القبائح، وصعبت عليه المكارم، فليقهرها بالمجاهدة، خوفاً من الوقوع في جهنم، قال رسول الله: (العلم بالتعلم والحلم

بالتحلم) [1].

وقال البصيرى:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع فإن تفطمه ينفطم وليس بإنسان من اشتاق إلى الرذائل، أو مالت نفسه فعمل بها، وصحب أهلها، فإن المعاشرة مجانسة، وتقهر الرذائل فتقودها للشهوة، والشهوة تدعو إلى الفساد والفحشاء والعذاب الأليم، فتقهر النفس، وليس بين الجنة والنار إلا كبح جماح النفس، أو إهمالها وإلا فكل النفوس تميل إلى الرذائل لجهلها، ومعارج الرقي جلية أمام السالك، قال ﴿ﷺ﴾ : (الحلال بين والحرام بين) وإن الحيوانات لتعرف الحلال والحرام، فإذا عملت أمراً قبيحاً فرت من البيت على الجدران، أنظر إلى القط إذا أخذ قطعة لحم من غير أن تعطيها له، فر على الجدران، وإذا أعطيته بنفسك، أكلها بين يديك آمناً، فكيف يعرف القط الحسن من القبيح، ولا يعرفه الإنسان؟!

(1)[رواه الطبرانى في الكبير، وأبو نعيم والعسكرى عن الدرداء مرفوعاً، ورواه البيهقى في المدخل عن أبى الدرداء موقوفاً، ، وأخرجه الدارقطنى في الأفراد، والخطيب عن أبى هريرة وعن أبى الدرداء وأخرجه البزار بسند في حديث طويل رجاله ثقات عن ابن مسعود مرفوعاً].

الفصل السادس

رقى الإنسان

إنما يرقى الإنسان بأخلاقه التى يكون بها شبيهاً بالملأ الأعلى، وبذلك يكون فوقهم قدرًا عند الله تعالى؛ لأن الملائكة مجردون من مقتضيات النزوع إلى ما يخالف الحق -ﷻ- فهم طهر، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والإنسان مغشي بسياج من العناصر المتضادة، المقتضية للميول إلى أسفل سافلين، فإذا تفضل الله عليه بالأخلاق الجميلة، التى بها ينفذ بها من أقطار السماوات والأرض بسلطان الخشية من الله تعالى، كان من أكمل المجاهدين في الله تعالى قال تعالى: ژ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤژ (العنكبوت: 69). وقال: (ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة؟ قالوا: بلى يا رسول الله: قال: أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون) [رواه البخارى في كتاب فضائل الصحابة الباب 27]، هذا وإن الإنسان ليبلغ بأخلاقه مبلغاً يكون به عزيزاً في ذله، غنياً في فقره، عظيمًا في ضعته، يهابه ملوك الأرض وما أوتى إنسان خيراً من خلق حسن.

قال الشاعر:

كَمْ سَيِّدٍ بَطَلٌ آبَاؤُهُ نُجُبٌ   كَانُوا ٱلرُّءُوسَ فَأَمْسَىٰ بَعْدَهُمْ ذَنَبَا

وَمُقْرِفٌ خَامِلُ ٱلآبَاءِ ذُو أَدَبٍ   نَالَ ٱلْمَعَالِيَ بِٱلآدَابِ وَٱلرُّتَبَا